

مأيا

المفنيات في الادب العربي

DE

Jan 7

Jan

FE

FE

FE



عيسى بابا

المغنيات

في حمن الأدب العربي

دار الثقافة - بيروت

بسم الله خير الاسماء

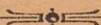
اما بعد فاليك السلسلة الرابعة من الفنون الادبية وقد بدأنا « بشعراء العشق » ثم المرأة في وحي الشعراء ثم « غزل النساء » وهذا بحث في الغناء والمغنيات وهو تابع لفن الغزل الذي ذكرناه في كتابنا السابق « المرأة في وحي الشعراء » وهي اجات مبتكرة لم يبحثها احد غيرنا ، في ما نزعم ، من قبل فعسى ان يروق الادباء ما اخذنا انفسنا به ويروا به ناحية جديدة في دراسة الادب ، والقصد الذي نرمي اليه اظهار التراث العربي المدفون في بطون المجاميع الادبية وهو بعيد عن متناول غير واحد من ابناء العربية وهم احق بالاطلاع عليه من سواهم ليتسنى لهم النظر بالمجاميع الادبية اذا ارادوا التخصص وهم امل الامة والزهرات التي ننتظر ان تثمر ثراً جنياً يانعا في المستقبل القريب باذن الله .

بيروت في ٦ نيسان ١٩٥٤

عيسى مخايل سابا



ادب المغنيات



٥٢
الغناء ضرب من الشعر ، وهو اصل له ، وما خرج عن الشعر
وما يتبعه كالמושحات والمواليا والزجل لا يكون غناءً وإنما هو
ترتيل ، ويكون تلحين الاشعار على انواعه ، بتقطيع الاصوات
على نسب منتظمة معروفة ، يوقع كل صوت منها توقيعاً عند
قطعه ، فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغمات بعضها الى بعض
على نسب وتوقيع متعارفين فليد سماعها للتناسب الذي يكون بينها .

وما من بحر شعري ، الا وله لحن يتغنّى به ، فهو والغناء
صنوان ، لا يفترقان ، فكان الشعر جسم والغناء روحه الذي
تنبسط له اسارير الوجه ، ويطرب له القلب ، وهو ما استفز
الانسان من فرح او حزن ، او حديث ، او منظر رائع ، او حديقه
مونقة ، او شلال متدفق ماؤه صلباً ، او نهر يتراكم ماؤه
هديراً .

فالغناء ، اكسير النفس ، يخفف الازات ، وينسي
المهموم ما به من آلام الحياة ومصائبها ، وقلَّ ان عبرت البشرية
زمناً بدون غناء او لحن تترنم به ، تعبدّاً او تطرباً ، لانه
مخلبة لانبساط الاعصاب وراحة الفكر والبدن .

والانسان على تباين درجة رقيّه ، مدفوع بعامل طبعي الى
السماع . والانفراد باعث على مدّ الصوت والترنم ، ولا سيما في
حال الضجر وسأمة النفس ، وقد قيل : إنّ النغم فضيل بقي في
المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة
باللحان ، على الترجيح ، لا على التقطيع ، فلما ظهر ، عشقته
النفس ، وحنّت اليه الروح ، وقد نسب الى افلاطون قوله :
« لا ينبغي ان تمنع النفس من معايشة بعضها بعضاً » ألا ترى ان
اهل الصناعات كلّها ، اذا خافوا الملالة والفتور على ابدانهم ،
ترنّموا بالألحان ، فاستراحت لها جوارحهم واطمأنت اليها
افتدتهم ، وليس من احدٍ إلا يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه
طنين رأسه . ولذلك نرى اصحاب الصناعات يعمدون في الكثير
من الاحيان ، الى الغناء والترنم ، لينذهبوا ما بهم من ملل ،
تجديداً للقوى ، ولا سيما اذا كانت الصوت حسناً لأنه في ما
ذكروا ، يسري في الجسم ، ويجري في العروق ، فيصفو له الدم ،
ويرتاح له القلب ، وتطمئن اليه النفس ، وتهتّز له الجوارح وتحنّ له
الحركات ، وقد كرهوا ان ينام الطفل باكياً ، لئلا تتأثّر له

رؤى مخيفة ، تؤثر في نفسه ، فينشأ على الخوف والوسوسة . »

وكم من صوت حسن ، أنام الجفن ، واسكر الروح وأطرب القلب ، وكم من أمهات بعثن في افئدة ابنائهن حنيناً ورقّة ودماثة خلق يهدهن ، فيطمئنون للصوت الحسن ، ويتبسّمون له ، وهذا ما يدل على أنّ تأثير الغناء في الانسا و مطلق الحيوان والطير :

والطير قد يسوقه للموت إصغاؤه الى حنين الصوت

ويقال : ان القلوب تحن الى حسن الصوت ، وكان صاحب الفلاحات يقول : ان النحل اطرب الحيوان كلّهُ على الغناء ، وذكروا : انّ الابل تزداد نشاطاً وقوّةً بالحاء ، والراعي اذا رفع صوته ونفخ في يراعه ، تلقته الغنم بأذانها ، وجدّت في رعيها .

والدابة تعاف الماء ، فاذا سمعت الصفيّر بالغت في الشرب ، وليس شيء ممّا يستلذّ به اخفّ مؤونة من السماع . وغناء الانثى افعل في النفس ، وابعث على الطرب والاستفساز ، ويرى غير واحد من الفلاسفة بينهم ابن رشد الاندلسي ، ان كمال هذا الفنّ ، في ان يكون الواضع او المؤلّف رُجلاً ، والموقع او المنشد امرأة ، لما في نعومة صوتها ، ورقّة جرسها ، ورشاقّة ترجيعها من روعة وسحرٍ وانخطاف .

والمرأة الادبية الحسنة ، اعلق بالنفس وأرواحُ للخاطر ممن
 فقدت مزيّة من هاتين المزيّتين : الادب والموسيقى ، فتموجات
 صوتها يزيدا جمالاً وإشراقاً ، ويسحر السامع ، فيصغي بكليّته لما
 يتساقط من بين ثناياها ، ويتمثّل في بريق عينها ذبولا ، ولذلك
 كان الاقبال على القيان اكثر من الاقبال على المغنين وقد قيل :

رُبَّ سَمَاعٍ حَسَنٍ	سَمِعْتَهُ مِنْ حَسَنٍ
مُقَرَّبٍ مَفْرَحٍ	مَبْعُدٍ مِنْ حَزَنٍ
لَا فَارِقَانِي أَبَدًا	فِي صَحَّةٍ وَبَدَنٍ

وما اريد في عرضي هذا من تأريخ الغناء ، تأريخاً صحيحاً
 معدّلاً لما في نشأته من غموض كثير به الشعر ، وما يقال بشأنه
 فهو ضرب من الترجيم بالغيب ، وان كانت بعض المصادر الادبيّة
 ذكرت اسماء مَنْ غنّى في الجاهلية ، من رجالٍ ونساء ، فهو ممّا
 لا نقدر ان نأخذ به او نرتاح اليه على القطع ، والرواة فيما نعلم
 يخلطون ويخترون . والغناء والشعر صنوان ، فاذا عرف تاريخ
 احدهما عرف الآخر :

تغنّ في كلّ بيتٍ أنتَ قائلهُ ،
 إنّ الغناء ، لهذا الفنّ مضمارُ ،

ولست في ما انتدبت نفسي اليه مؤرّخاً وإنما انا عارض

أدب المغنيات اللواتي أصبن حظاً من الأدباء فذكروهن .
فبأذهبنّ وما وقع لهنّ نستدلّ على ناحية من نواحي العصر الذي
عشنا فيه ، ونلمس ما كان فيه من متعٍ ولذاتٍ ، وأوّل ما
يعرض لنا من هذا البحث :

العصر الجاهلي

ان العصر الجاهليّ الذي وصلنا أدبه ، وما وقع فيه من أخبار ،
بطريق الرواية ، قد جرّحه علماء الأدب وعدّوه ، حتى استقام
ما نقلوه فقالوا : إنّ أوّل من غنّت من النساء في الجاهلية بعد
وئاد ومن غنائهما :

يا أمّ عثمان ، نولينّا ، قد نفق النائل الطفيف (١)

وذكروا أسماء جملة من القيّان ، منهم أمّ عمرو وفيها يقول
شاعرٌ جاهلي :

صدت الكأسَ عَنّا ، أمّ عمرو ،

وكان الكأسُ مجراها اليمين ،

(١) نولينّا : اعطينّا ، النائل : الاخذ ، الطفيف : الكثير

وقد اشتهرت في هذا العصر ايضاً ، قينتان للنعمان بن المنذر
يقال لهما الجرادتان كما ذكرت بعض مجاميع الادب وقد غنّتا :

الاياقين، ويحك قم فهيمن ،
لعلّ الله ، يسقينا ، غماما ،

على ان ما ذكر ابو الفرج الاصفهاني غير هذا، قال : ان عبد
الله بن جدعان كان سيداً جواداً من قریش وكانت له مغنيتان هما
الجرادتان وقد غنت كل منهما شعراً لابي فرعة الكناني :

أقفر من اهله مصيف	فبطن نخلة فالمصيف
هل تبلغني ديار قومي	مهرية سيرها زفيف
اعمامها الصيد من لؤي	حقاً واخوالها ثقيف

وقد قيل فيهما :

غنّاني الجرادتان صباحاً ،

فكأنني شربت كأس الدنان ، (١)

وليس يعنينا من امر مالكهما شيئاً . وإنما الذي اردناه
غناءهما وادبهما

(١) اسند الشاعر فاعلان الى فعل واحد وهي لغة ضعيفة يعبر عنها النجاة
بلغة « اكلوني البراغيت »

ومن القيان اللواتي تغنين بشعر حسّات بن ثابت ، بهـوة
واسماء وقد انشدت هذه الاخيرة :

بيضُ الوجوه « كريمة احسابُهم ،
شمُ الانوف ، من الطراز الأوّل ،
يسقون من ورد البريص عليهم ،
بردى يصفق بالرحيق السلسل ، (١)
ولقد شربتُ الخمر في حانوتها ،
صهباء ، صافيةً كطعم الفلفل ،
يسعى عليّ بكأسها متنّطف ،
فيعلّني منها ، ولو لم أنهل ،
إن التي ناولتني فرددتها ،
قُتِلَتْ ، قُتِلَتْ ، فهايتها ، لم تُقتلِ ،

وذكروا اسماء مغنيات كثيرات ، لا يعيننا ذكر اسمائهنَّ
إن لم يكن لهنَّ ما غنين به من الشعر ،

ولا يُنكر ، انّ الغناء الجاهليّ ، كان فيه خشونة الصحراء

(١) البريص : فرع من نهر بردى في دمشق يصفق يضرب كفاً بكف
وهو استعارة لهدير الماء ، . الرحيق : الخمرة البيضاء

وصفير الريح ، ورغاء الابل ، لانّ الانسان يتأثر بطبيعة محيطه ،
ادبياً ومادياً ، وقيل : الانسان ابن بيئته ، يأخذ عنها ويعطيها ،
ولأمر ما يكثر الترجيع في الغناء العربيّ ، فهو يشبه ترجيع
صفير الهواء في الصحراء . وما يلقي علينا ضوءاً ولو ضئيلاً عن
الغناء في الجاهلية ما جاء في معلّقة طرفة قوله :

ندماي بيض كالنجوم وقينه تروح علينا بين بردٍ ومجسد
اذانحن قلنا اسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد
اذا رجعت في صوتها خلت انها تجاوب أظارٍ على رُبع رد

هذا ما يثبت لنا عناية الجاهلية في القيان والسماع اليهن ، بما
يدلّ على ان الغناء طبيعة في النفس عرفها الانسان منذ وجوده .

العصر الاموي

من مغنيات هذا العصر ، عزّة الميلاء ، وكان يألّفها الاشراف
وغيرهم من اهل المروآت ، واليها نُسب :

منع الحياة عن الرجال ونفعها ،
حدق ، نُقلبُها النساء مراض (١)

(١) حدق جمع حدقة وهي سواد العين الاعظم ، مراض نعت حدق .

وكانت أفئدة الرجال ، اذا رأوا ،

حقوق النساء لنيلها أغراض (١)

ومنهن : جميلة مولاة لبني سليم ، اخذ عنها معبد وابن عائشة ، وسلامة وعقيلة والشماسيتان : خليفة وربيعة .

وفي هذا العصر ، كانت العصبية العربية ، لا تزال آخذة بروؤوس القوم فما تجردوا عن عاداتهم في الصحراء بل مزجوها بما تساقط اليهم من عادات الامم الذين صاروا في ذمة العرب الفاتحين واصبح من الطبيعي ان يكون الغناء مزيجاً من لحن صحراوي ولحن حضري يجمع بين نسيم الجنائن الغناء وصفير الصحراء . ولعل جميلة كانت تمن جمع بين هذين الضربين ، وجميلة هذه شبيخة الغناء الحجازي كانت جارية لبني سليم وزوجها من موالي الانصار فسميت مولاة الانصار ، وقد حثب اليها الغناء ما كانت تسمعه من الحان سائب خاثر وكان جاراً لمولاهما ، فحذقت ألحانه وغنت عليها شعراً كانت تحفظه وما زالت تعالج الالحان حتى اصبحت صاحبة مذهب غنائي عرفت به .
ومن خبرها :

ان معبداً ومالك بن ابي السمح ذهبا اليها ، فأذنت لهما بالدخول ، فدخلا ، فأخرجت اليهما رقعة فيها ابيات . وقالت :

(١) افئدة جمع فؤاد : قلب .

بعث بهذه الرقعة اليّ فلان لأعني بها .

فانشدت :

إنما الزلفاء ، همّي ، فليدعني ، مَنْ يلومُ ،

معبد :

أحسنُ الناس جميعاً ، حين تشي ، وتقوم ،

جميلة :

حبّ الزلفاء عندي ، منطقٌ ، منها رخيّم ،

معبد :

أصل الحبل ، لترضى ، وهي للحبل ، حزومٌ ،

جميلة :

حبّها في القلب داءٌ ، مستكنٌ ، لا يريم (١)

ومن خبرها ايضاً ما يأتي ، قيل : جلست جميلة يوماً للوفادة عليها ، وجعلت على رؤوس جواربها شعوراً ، مسدلةً ، كالعناقيد الى أعجازهنّ ، وألبستهنّ انواع الثياب . المصبغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزينتهنّ بأنواع الحليّ ، ووجهت الى عبدالله بن جعفر تستزيّره ، وقالت لكاتبٍ أملت عليه ما يأتي :
« بأبي انت وامّي ، قدرك يحلّ عن رسالتي ولكنّ كرمك يجتل

(١) لا يريم : لا يبرح

زَلَّتِي ، وَذَنبِي لَا تَقَالُ عَثْرَتُهُ ، وَلَا تَغْفَرُ حَوْبَتُهُ ، فَإِنْ صَفَحْتَ ،
فَالصَّفْحَ لَكُمْ مَعِشَرَ أَهْلِ الْبَيْتِ يُوَثِّرُ ، وَالْفَضْلَ فِيكُمْ مَدَّخِرُ ، وَنَحْنُ
الْعَبِيدُ وَأَنْتُمْ الْمَوَالِي ، فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ مُقَارِباً ، وَآلِي وَجُوهَكُمْ
نَازِراً ، وَطُوبَى لَكُمْ بِمَجَاوِرٍ ، وَيَعَزُّكُمْ قَاهِراً ، وَبِضِيَّائِكُمْ مَبْصِراً ،
وَالْوَيْلَ لِمَنْ جَهِلَ قَدْرَكُمْ ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ
لَكُمْ ، فَصَغِيرُكُمْ كَبِيرُ ، بَلْ ، لَا صَغِيرَ فِيكُمْ ، وَكَبِيرُكُمْ جَلِيلُ ،
بَلْ الْجَلَالَةُ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْخَلْقِ ، هِيَ لَكُمْ وَمَقْصُورَةٌ
عَلَيْكُمْ ، وَبِالْكِتَابِ نَسْأَلُكَ ، وَبِحَقِّ الرُّسُولِ ، نَدْعُوكَ . إِنْ
كَنتَ نَشِيطاً لِمَجْلِسِ هَيَّأَتِهِ لَكَ ، لَا يَحْسُنُ إِلَّا بِكَ ، وَلَا يَتِمُّ
إِلَّا مَعَكَ . وَلَا يَصْلَحُ إِنْ يَنْقُلَ عَنْ مَوْضِعِهِ ، وَلَا يَسْلُكُ بِهِ
غَيْرَ طَرِيقِهِ .

فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ الْكِتَابَ قَالَ : إِنَّا لَنَعْرِفُ تَعْظِيمَهَا لَنَا ،
وَإِكْرَامَهَا لَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهَا قَدْ آلَتْ ، أَنْ لَا
تَعْنِيَ أَحَدًا إِلَّا فِي مَنْزِلِهَا .

وَالْتَفَتَ إِلَى الرُّسُولِ وَقَالَ : وَاللَّهِ قَدْ كُنْتُ عَلَى الرُّكُوبِ
إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنِّي جَاعِلٌ بَعْدَ رَجُوعِي ، طَرِيقِي
عَلَيْهَا ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى بَابِهَا ، أَدْخَلَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُ إِلَيْهَا ،
وَصَرَفَ بَعْضَهُمْ ، فَظَرَ إِلَى الْحُسَيْنِ الْبَارِعِ وَالْهَيْئَةِ الْبَاذَةِ (١) ،

(١) هَيْئَةٌ بَاذَةٌ : فِيهَا تَوَاضَعُ فِي اللِّبَاسِ وَعَدَمُ التَّبَجُّجِ

فأعجبه ووقع من نفسه . فقال : يا جميلة لقد أتيت خيراً كثيراً ،
ما أحسن ما صنعت !

— سيدي ، إن الجميل للجميل يصلح ، ولك هيأت هذا
المجلس . فجلس عبدالله بن جعفر ، وقامت على رأسه ، وانتصبت
الجواري صفين ، فأقسم عليها ، فجلست غير بعيد . ثم التفتت
إليه وقالت : يا سيدي ألا أغنيك ؟

— بلى . ففغنت

بني شبيعة الحمد الذي ، كان وجهه ،
يضيء ظلام الليل ، كالقمر البدر ،
كهولهم ، خير الكهول ونسلهم ،
كنسل الملوك ، لا يبور ، ولا يحري (١)
أبو عتبة الملقى اليك جماله ،
أعز ، هجان اللون ، من نفر زهر (٢)
لساقي الحبيج ، ثم للخير هاشم ،
وعبد مناف ، ذلك السيد الغمر ،

(١) لا يبور : لا يهلك ، لا يحري : لا ينقص ،

(٢) هجان بالكسر من الناس الحسيب الكريم ومن الابل البيض الكرام .

أي بيض اللون

أبوكم قصيَّ كان يُدعى مجّعا ،
به جمع الله ، القبائل من فهر ،

فقال عبدالله : أحسنت يا جميلة ، وأحسن خذافه ما قال ،
بالله ، أعيد به عليّ .

فأعادته ، فجاء الصوت أحسن من الارتجال ، ثمّ دعت
لكلّ جارية بعودٍ ، وأمرتهنّ بالجلوس على كراسٍ صغارٍ ،
قد أعدتها لهنّ ، فضربن ، وغنّت عليهنّ هذا الصوت ، وغنّى
جوارها على غنائها .

فلما ضربن جميعاً ، قال عبدالله : ما ظننت أنّ مثل هذا
يكون ، وإنّهُ لمّا يفتُن القلب ، ولذلك كرهه كثير من
الناس لما علموا فيه ...

الحكم في الغناء

ويؤخذ من قول صاحب الاغاني ، أنّ الناس في ذلك العهد
كانوا يتذوّقون الغناء ، ويفاضلون بين جيّده ورديئه ، ويُبأينون
بين صوتٍ وآخر ، وهذا ما يدلُّ على احساسٍ رفيعٍ
وذوقٍ سنيّ .

من ذلك ما حَدَّثنا بِهِ قال : جاءَ سُنْدَةُ الحِياطِ المعْنِي الى
الافلح الحِزوميّ ، وكان يوصف بعقلٍ وفضلٍ .

فقال له : أين اقبلتَ ، والى أينَ تمضي ؟

ـ اليك قصدت من مجلسٍ لبعض القرشيين ، اقبلتُ محاكماً اليك

ـ فيماذا ؟

كنت عند هذا الرجلِ ، وحضرتُ مجلسه وقضاءَ الحِطيين ،
وصفراء العلقميين ، فتناولتا بينهما رَسَل ابن سريج :

ليتَ شعري ، كيف أبقي ساعةً ؟

مع ما ألقى ، اذا اللّيلَ حضر ،

مَنْ يَذُقُ نوماً ، ويهدأ ليلةً ،

فلقد بُدِّلَتْ ، بالنوم السَّهر ،

فغَنَّتاه جميعاً ، : فاختلفتا في تفضيلهما ، ففضَّل كلَّ فريقٍ

منا احدهما ، فرضيتا جميعاً بحكمك ، فاحكم بينهما وبيننا .

فوجم ساعةً ، واهل الحِجاز ، اذا ارادوا ان يحكموا تأمَّلوا

ساعةً ثُمَّ حَكَمُوا ، فاذا حكم المحكَّم مضي حكمه ، كائنًا ما

كان ، ففضَّل من فضَّلَه ، وأسقط مَنْ أسقطه ، اذا تراضى الخصمان

به . فكره الافلح ان يُرضي قومًا ويسخط آخرين . فقال لسندة :

صفها لي كيف كانتا ، اذا غنّتا ، و اشرح لي مذهبهما فيه ، كيف سمعت ، ثمّ انا احكم بعد ذلك ؟

— أمّا جارية الحبطين ، فانّها كانت تلوك لحنه ، كما يلوك الفرس العتيق لجامه ، ثمّ تلقبه في هامة لدّنه ، ثمّ تخرجه من منخرٍ أغنّ . والله ما ابتدأته فتوسطته ، وأنا اعقل ، ولا فرغت منه ، فما أفقت إلاّ وأنا اظنّ اني رأيتّه في نومي .

وأمّا صفراء العلقميين ، فانها احسنهما خلقاً واصحّها صوتاً ، والينها تشنّياً ، والله ما سمعها احد قطّ فانتفع بنفسه ولا دينه . فهذا ما عندي ، فاحكم انت يا اخا بني مخزوم .

قال : قد حكمت بانهما بمنزلة العينين في الرأس ، بايها نظرت ابصرت ، ولو كان في الدنيا من عميد بن سريج خلف لكانتا ، وانصرفوا جميعاً راضين بحكمه .

رأيهم في الغناء

قالوا : المصيب المحسن من المغنين والمغنيات ، هو الذي يشبع الألمان ، ويملاّ الانفاس ، ويعدّل الاوزان ، ويفخّم الالفاظ ، ويعرف الصواب ، وقيم الاعراب ، ويستوفي الشفم

الطوال، ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب اجناس الايقاع،
ويختلس مواقع النبرات، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من
التقرات .

هذا رأيهم بصحة الغناء، ومنه نعلم ما كان عندهم من معرفة
بالاصوات ومخارجها، والألحان وما فيها من ترجيع وهذه هدة،
وامّا الآلات فسنعرض الى ذكرها في ختام هذا البحث .

تقسيم في السماع

قسموا السماع ثلاثة اقسام :

١ - الحرام المحذور، وهو الاكثر عند الناس من الشبان
والشابات، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم، وتكدّرت
بواطنهم، فرغبوا في دنياهم اكثر من الآخرة، ففسدت
مقاصدهم، ولا يتحرك منهم إلاّ ما هو الغالب عليهم وعلى
قلوبهم، من الصفات المذمومة ولا سيما في الزمن الذي تتفشى به
الرذيلة وتسوء الاخلاق، وينحط التهذيب .

٢ - المباح، وهو ما يقصد منه التلذذ بالصوت الحسن
لانتعاش الروح، وإراحة البدن، او تذكرة الغائب او التسلية

من حزنٍ أو سأم .

٣ - المندوب اليه ، وهو ما قصد فيه حبّ الله والشوق اليه ، فلا يحيرك منه السماع إلا الصفات المحمودة . والغناء الممتزج الذي لا يثير مكان الشهوة ، ويبعث على مكارم الاخلاق ، من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، والذبّ عن الاعراض ، والتجاوز عن السيئات ، وقد يبعث على البكاء ندماً على خطيئة فيرقق القلب ويجلوه ، او تذكر محبوب مفارق فتتراخي الاعضاء ويشرد الفكر اليه وقد نُقِلَ : أن جارية فارقتها صاحبها سعيّاً وراء الرزق فكانت تأخذ العود وتضرب اليه متغنية ، فما سمعها أحدٌ إلا بكى :

أما النهارُ ، فمستهامٌ والهـ ،
وجفون عيني ، ساجفاتٌ تدمعُ (١)
والليلَ قد أروعى النجومَ ، مفكراً ،
حتى الصباح ، ومقلتي لا تهجعُ (٢)
كيف اصطباري ، عن غزالٍ شادنٍ ؟
في لحظٍ عينيه ، سراجٌ يلمعُ ،

(١) ساجفات : مدرات الدموع وهي استعارة من سجد البيت ارسل عليه السجف ، السنارة
(٢) تهجع : تنام .

وبياضُ وجهٍ ، قد أُشيبَ بمُمرّةٍ ،
في وجنتيه ، كأنه مستجمعُ ،
والقدُّ منه ، كالقضيب إذا زَها ،
والغصنُ ، في قنوائه يتزعزعُ (١)
تمت خلائقُه ، وأكملَ حسنه ،
كمثال بدرٍ ، بعد عشرٍ ، أربعُ ،

وفي تذكّر الحبيب تقول إحدى جواري الفضل بن الربيع ،
أهدى الحبيب مع الجنوبِ سلامه ،
فاردُّدُ إليه ، مع الشمالِ سلاما ،
واعرِفْ بقلبك ، ما تضمّن قلبه ،
وتداولاً ، بهوا كما ، الأيَّاما ،
وإذا بكيتُ له ، فأيقنَ أنّه ،
ستجودُ ، ادمعه عليك ، وهاما ،
فاحبسْ دموعك ورحمةً لدموعه ،
إنّ كنتَ تحفظُ ، أو تحوطُ ذِماما ،

(١) يتزعزع : ينمو

نادرة

نسب الى جميلة المغنية نوادر جمّة منها : أنّها جلست يوماً
ولبست برنساً طويلاً ، وألبست من كان عندها برنساً دون ذلك
وكان في القوم ابن سريج ، وكان قبيح الصلغ ، قد اتخذ وفرة
شعرٍ يضعها على رأسه ، وأحبّت جميلة ان ترى صلغته ، فلما بلغ
البرنس الى ابن سريج قال : دبّرت عليّ وربّ الكعبة وكشف
صلغته ووضع القلنسوة على رأسه ، وضحك القوم من قبح صلغته
ثم ان جميلة قامت ورقصت وضربت بالعود وعلى رأسها البرنس
الطويل ، وعلى عاتقها بردة يمانية ، وعلى القوم امثالها ، وقام ابن
سريج يرقص ، ومعبد وابن عائشة ومالك والقريظ ، في يد كل
واحدٍ منهم عود يضرب به على ضربٍ جميلة ، فغنّت وغنّى
القوم معها :

ذهب الشبابُ ، وليته لم يذهب ،

وعلا ، المفارق ، وقع شيبٍ مُضربٍ (١)

(١) مفارق مفردة مفروق وهو مكان فرق الشعر في الرأس .

والغانيات ، يردن غيرك ، صاحباً ،
ويعدنك الهجران ، بعد تقرب (١)
إني أقول مقالةً بتجارب ،
حقاً ، ولم يخبرك مثل مجرب ،
صافي الكريم ، وكن لعرضك صائناً ،
وعن اللئيم ومثله ، فتنكب (٢)

فأنت ترى مما تقدّم أن المرأة المغنية كانت تعقد حفلات
انسٍ وتجلس الى الرجال يتطارحون فيها الغناء ، وفي المغنيات
من كنّ شاعراتٍ مملحنات كفضل الشاعرة ، وقد ذكر القاسم
بن عبدالله الحرّاني قال : كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات
يوم ، وقد اقتصد ، فاتته هدايا « فضل الشاعرة » ألف جدي
والف دجاجة ، والف طبق رباحين وطيب وعنبر ، وغير ذلك .

فلما وصل ذلك كلبه ، كتب اليها : إن هذا يوم لا يتم
سروره إلاّ بك ومجضورك ، وكانت احسن الناس ضرباً بالعود ،
واملحهم صوتاً ، واجودهم شعراً ، فاتته فضرِبَ بينه وبينها
حجاب ، واحضر قوماً ندماء ووضعت المائدة ، وجيء بالشراب

(١) الغانيات مفردة غانية : وهي التي استغنت بجهاها عن الزينة .

(٢) تنكب : ابتعد

فلما شربوا أقداحاً ، اخذت عودها ، فغنت بهذا الشعر ، وهو
والصوت لها :

يا مَنْ أَطْلَتْ تَفْرُسي
في وجهه ، وتنفّسي (١)
أفديك مِنْ مِتْدَلِّلٍ ،
يزهو ، بقتلِ الانفسِ ،
هبني أسأتُ ، وما أسأ
تُ ، بلي ، أقولُ : أنا المُسي ،
أحلفتني ، أن لا أسأ
رق نظرةً ، في مجلسي ،
فنظرتُ نظرةَ عاشقٍ ،
أتبعْتُها ، بتنفّسي ،

ونسيتُ أنِّي قد حلفتُ ، فما يُقالُ لِمَنْ نسي ،
وضربتُ على العودِ وغنّت :

عاد الحبيبُ الى الرضا ،
فصفحتُ عمّا ، قد مضى ،

(١) تفرس : اطال النظر

من بعد ما لصدوده ،
شمت الحسود ، فعرضا (١)
تعس البغيض ، فلم يزل ،
لصدودنا ، متعرضا

هبني أسأت ، وما أسأت ، فان أسأت ، لك الرضا
ومن المغنيات خليدة ، الفتاة اللعوب ، المغناج ، المتثنية
تشي الغصن في النسيم العليل ، قد غنت في مجلس جميلة :

ألا يامن يلوم على التصاي ،
أفقر شيئا ، لتسمع من جواي (٢)
بكرت تلومني ، في الحب جهلا ،
وما في حب مثلي ، من معاب
أليس من السعادة غير شك ،
هو متواصلين على اقتراب
كريم نال ودآ ، في عفاف ،
وستر في منعمة ، كعاب

وما دمنا نبحت في العصر الاموي ، لا بد لنا من ان

(١) صدود : جفاء بعد اي الاعراض عن الشخص

(٢) التصاي : الميل الى الصبوة وهي جهلة الفتوة

نصوّر العصر بأدبه وملاهيه ، معتمدين في ذلك كتب التاريخ
والادب ، وما تساقط من اخبار المغنيات ، ولعلّ ما نقصه من
امر يزيد وحبابة ، يعطينا فكرة جليّة ، تتمثّل فيها حالة العصر
وما كان فيه من مُتَمَعٍ وهو سواء في القصور او الدور ، فالمرأة
تطلب وتستهوِي ، والرجل وراء لذّته يسعى ، والرجل والمرأة
واحد في ما يشتهيان ويرغبان ، لذّة وممتعة ، ورعشة وانخطافاً .

يزيد وحبابه

وقبل ان نقصّ عليك خبرها لا بدّ لنا من ان نتعرّف اليها
قالوا : انها كانت جارية من جوارى المدينة ، وقيل انها كانت
لابن « رمّانة » وقيل لابن « ميتا » وقيل انها كانت لامرأة تدعى
« لاحق المكّية » اخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومعبّد
وجميّة وعزّة الميلاء ومن خبرها ما قصّته كتب الادب ، حدّثنا
الرواة قالوا : كان يزيد بن عبد الملك من خلفاء الدولة الامويّة
يعشق جارية له تدعى حبّابه ، عرفها مغنيّة جميلة الصوت ، وشيقة
القامة ، خفيفة الحركات ، في وجهها حُسنٌ ، وفي عينيها ذبول
ساحر ، فاشتهاها ثم أحبّها ، وأخلص لها الحبّ كلّّه ، حتى انه
كان يخاف ان تموت .

وحبابة هذه كانت تسمى العالية ، وهي من مولدات المدينة
حُلوة ، ظريفة ، حسنة الغناء ، طيّبة الصوت ، ضاربة بالعود ،
اشتراها يزيد بالف دينار ، قبل ان يرقى عرش الخلافة ، وبلغ
ذلك سليمان خليفة الامويين ، فهم بالحجر عليه ، لسفهه وانفاقه هذا
المبلغ الباهظ في شراء جارية ، فتدبر الامر يزيد وخشي العاقبة ،
فردّها الى مولايها على غير رضى منه .

ومات سليمان بعد قليل ، فصفا الجو ليزيد ورقى عرش
الخلافة ، وكانت له زوجة ذكّية نبيلة تسمى سعدة ، تعرف
مكانة الجارية « العالية » من قلبه ، وتعلم أنّه لا بدّ من ان
يطلبها ، فاشتريتها واهدته اياها ، فلما حصلت له ، انفرجت اسارير
وجهه ، وعظم قدر سعدة عنده ، وأطلق على العالية اسم حبابة .

وكانت سعدة ، زوجة يزيد ، قد اخذت على حبابة عهداً
أنها توطىء لابنها عنده في ولاية العهد ، وتحضرها بما تحبّ ،
وبقيت حبابة ، اثيرة عند يزيد ، كلفاً بها يلازمها في طعام وشراب
وغناء ومنام ، وكان رجال بني امية يلومونه على استهتاره ،
وتعلّقهم بهذه الجارية فيردّهم ولا يسمع لهم ، وكانت هي من ناحية
أخرى ، لا تدرك شيئاً من مصالح الامّة ، او مصالح الخلافة ،
وما يهجّوها من الامر ، وهي تطلب لذتها وتشبع نهمها ، فكانت

تظهر من الحركات النسائية ضروبا ، لتجذبه اليها وتعلقه بها .

ويروى أنّ مسامة ، أقبل عليه ذات يومٍ يلومه في الإلحاح
على الغناء والشراب ، وقال له : لقد ولّيت بعقب عمر بن عبد
العزیز وعدله ، وتشاغلته بهذه الأمة عن النظر في أمور الرعيّة ،
والوفود ببابك ، واصحاب الظلامات يصيحون ، وانت غافل
عنهم .

فقال يزيد : صدقت والله ، وترك الشراب ولم يدخل على
حبابة أياماً .

فدست حبابة الى الاحوص ان يقول ابياتاً في ذلك
ووعده ، ان ردّ الخليفة عن رأيه ، تمنحه الف دينار ، فنظم
الاحوص ابياتاً ، ودخل على يزيد وأنشده :

ألا ، لا تلمه اليوم ، ان يتلبّدا ،
فقد غلب المحزون ، ان يتجلّدا ،
بكيت الصبا ، جهدي ، فمن شاء لامني ،
وَمَنْ شاء آسى في البكاء وأسعدا ،
وإني وإن فنتت في طلب الغنا ،
لأعلم أني ، لست في الحب أوحدا ،

إذا أنت لم تعشق ، ولم تدر ما الهوى ،
فكن حَجراً ، من يابس الصخر جليدا ،
فما العيش إلا ، ما تلذّ وتشتهي ،
وإن لام فيه ، ذو الشنانِ وفنّدا (١)

فلم يتحرّك يزيد الى حبابة بهذا الاغراء ، وبقي اسبوعاً ،
لا يطلبها ، فلما كان احد الايام قالت حبابة لبعض جوارها اذا
خرج امير المؤمنين ، الى الصلاة ، فأعلمني ، فلما اراد الخروج
أعلمتها ، فتلقته والعود في يدها ، فغنّت البيت الأول « ألا لا
تلمه » فغطى يزيد وجهه وقال : مه ، لا تفعل .

ثم غنّت : « فما العيش الا ما تلذّ وتشتهي ، فعدل اليها
وقال : صدقت والله ، قبّح الله من لا مني فيك ، وصاح
بالعلام قائلاً : قلّ لمسلمة أن يصلّي بالناس ، وأقام معها يشرب
وتغنيّه . ونحن لا نقدر ان نمرّ بهذه الرواية من غير تعليق ،
وفيها رأينا اثر المرأة وقد سحرت بغنجها ودلالها الخليفة فأوقفته
عن صلاته بالجماعة ، فأثر المتعة بها على الله والناس ، فلا عجب
ان نحن رأينا انتفاض الناس من حول الملوك وانزالهم منزلة
الشعب ودكّ عروشهم ومحوّ ذلك الظلّ الذي طالما تغنّوا به

وقالوا : إنهم ظلّ الله على الأرض ، وما اضعف ذلك الظلّ
الذي تستهويه امرأة وتخضعه لارادتها ، وتلاعب به ، تسجده
بفتور عينيها ودلّتها وميلاتها وحركاتها الباعثة على الشبق ،
فتمنّيه العدل والملّك والعباد ، فيا خُدعة الابد وحكم القدر
والقوّة . وهذه :

حبابة وسلامة

كان ليزيد جارية أخرى تحمّك الضرب والغناء اكثر من
حبابة ، تدعى سلامة . ولكنّ حبابة كانت احظى منها عند
يزيد وكان يشهد كذباً بفضلها عليها . ف قيل : إنهما اختلفتا في
غناء هذا البيت :

وترى لها دلاً ، اذا نطقت به ،

تركت بنات فؤاده ، صعراً (١)

فقال يزيد : من أين جاء اختلافكما ؟ والصوت لمعبد ، ومنه
اخذتماه .

(١) صعر : امال عنقه الى احد الشقين

حبابة : هكذا أخذته .

سلامة : هكذا أنا أخذته ، وأخذي أصح مِنْ أَخَذِهَا .

— لله قد اختلفتما ومعبد حيّ ، فأمر يزيد أن يكتب إلى عامله في المدينة أن يبعثَ معبداً إليه .

فلما دخل معبد ، لم يسأله الخليفة عن الصوت ، بل أمره أن يغنّي ، فغنّي :

فياعزّ ، انِ ، واشِ وشى بي عنكم ،

فلا تكرميه ، أنْ تقولي له : مهلا ،

فاستحسنه الخليفة وطرب ، ثم قال : إنَّ هاتين الجاريتين قد اختلفتا في صوتٍ لك فاقض بينهما . فقال حبابة : غنّي فغنّت

وقال لسلامة : غنّي فغنّت .

فقال : الصواب ما قالت حبابة

فقالت سلامة : والله يا ابن الفاعلة ، إنَّك لتعلم أنَّ الصواب ما قلتُ ، ولكنَّك سألت ، أيهما آثر عند أمير المؤمنين ؟ فقبل لك حبابة ، فاتبعت رضاه وهواه ، فضحك يزيد وطرب ، وأخذ وسادة فصّيرها على رأسه وقام يدور في الدار ، ويرقص ويصيح السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيّان ، فدار الدار كلها ثم رجع فجلس في مجلسه ، وأنشأ هذين البيتين :

أبلغ حبابة ، أسقى ريعها المطرُ
ما للفؤادِ ، سوى ذكراكم ، وطرُ
إن سار صحي ، لم املك تذكركم ،
او عرّ سوا ، فهموم النفس والسهر ، (١)

فغناهما معبد وطرب يزيد

ويؤخذ من مجرى هذه الرواية وما بعدها أن امر تدبير
الرعيّة لم يكن همه كثيراً بقدر ما كان يلتفت الى ملأه
واستهلهه وما يؤيد هذا القول الرواية ، الآتية :

موت حبابة

ذكر صاحب الأغاني قال : أن نزل يزيد بن عبد الملك بيت
رأس في الشام ، ومعه حبابة ، فقال : زعموا انه لا تصفو لاحد
عيشة يوماً الى اللّيل إلاّ كدّها شيء عليه ، فسأجرب ذلك ،
ثم قال لمن معه : اذا كان غد ، فلا تخبروني بشيء ، ولا تأتوني
بكتاب ، وخلا هو وحبابة ، فأتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت

(١) التعريس : نزول الركب ليلاً للراحة من وعناء السفر

حجابه رمانة فشرقت بحبّة منها ، فماتت .

فأقام ، لا يدفنها ثلاثة أيام ، حتى تغيّرت وأنثنت ، وهو
يشمّها ويرشفّها ، فعاتبه على ذلك ذوو قرابته ، وعابوا عليه ما
يصنع ، وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك ، فأذن لهم في غسلها
ودفنها ، فأخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلّم ، حتى جلس
على قبرها ، فلمّا دفنت قال : أصبحت والله كما قال كثير :

فان يسْلُ عنكِ القلبُ ، او يدعِ الصبا ،

فبالياس ، نسلو عنكِ ، لا بالتجلّد (١)

فما قام إلاّ خمس عشرة ليلة حتى دفن الى جانبها .

ولم تقتصر المغنيات على قصور الخلفاء فقد شارك في ذلك
الاثرياء وسواد الناس اذا كانوا في بسطة من العيش ، ممّا يدلّ
على ان العبث والمرح هما شأن من شؤون الناس عامّة ، فما من
نفس حيّة إلاّ وتشتهي السماع والطرب . فينسى الملك مهامّ
الحكم ، فلا شيء يقف امام طرب النفس .

ولم يقف الغناء في العصر الامويّ ، وفنّه لمّا يستكمل بعد ،
فسار متصلاً بما بعده من العصور ، فبقيت حلقاته متتابعة بين

(١) اليأس قطع الرجاء . التجلّد . التصبر .

ضرب على العود ونقر على الدفّ وصفق الصنج ومدّ الصوت .

ولم يخلُ عصرٌ من غناء انثى وهزّ ردفٍ وتمايل خصر وغمزة
عين وبسمة ثغر ، وفي ما نسوق من الاخبار دليل على ما قدمنا
قطعاً .

المغنية مليحة

حدثنا صاحب المحاسن والاضداد قال : كان عليّ بن الجهم في
مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة ، فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة
التيام ، بلونٍ كأنها الدرّ في البياض مع احمرار خدين ،
كشقائق النعمان فسلّمت :

فقال لي محمد : يا ابا الحسن ، هذه الجنّة التي كنتم توعدون ،
فقالت :

وما الوعد ، يا سؤلي ، وغاية منيتي ،
فانّ فؤادي ، من مقالك ، طائر ،

فقال لها محمد :

أما وإله العرش ، ما قلت سيئاً ،
وما كان ، إلاّ ، أنّني لك شاكر ،

فقال ابن الجهم :

أَمْسِكْ ، فديتُكَ ، عن عتابِ محمدٍ ،
فهو المصونُ ، لودِّهِ المتحاذرُ ،

فأقبلت تحدِّثنا ، فاذا عقلٌ كامل ، وجمال فاضل ، وحسن
قاتل ، وردف مائل . فقلت : لقد أقرَّ الله عيناً تراكِ ، فقالت :
أقرَّ الله أعينكم ، وزادكم سروراً وغبطةً ، ثمَّ اندفعت تغتني بنعمة ،
لم أسمع أحسنَ منها :

أروح بهم ، من هواك مبرِّح ،
أناجي به قلباً ، كثير التفكير ،
عليك سلامٌ ، لا زيادةَ بيننا ،
ولا وصل ، إلا أن يشاءَ ابنُ معمر ،

فمازلنا يومنا هذا معها ، في غبطةٍ وهناء ، فما ذكرتها بعد
ذلك إلاَّ اشتقت لها ، وأسفتُ عليها ، وتمنيت لو أني لصيقُها .
وما سقنا هذه النادرة إلاَّ لنبيين شيئاً من ادب المغنيات وما
كنَّ يتمتعنَّ به من غيث الرجال بهنٍّ ومرحٍ الأيام وتذوقِ
للادب والفن .

والطبقة الكادحة ، ما كانت لتتعم بمثل هذه المجالس ، فالفقير

فقير في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، يرى بعينه ويتألم في قلبه ، والدنيا
فريسة القويِّ المقتدر ، والفقير ان تمتنع فبسماعٍ عابرٍ او نظريِّ
حائرٍ وذكرٍ بارح . وهذه شادن :

ومن أخبارها ، ما رواه محمد بن حمادٍ قال : كنت يوماً عند
اسحاق بن نجيم ، وعنده جارية يقال لها «شادن» موصوفة بجودة
الضرب على العود ، وشجو صوتٍ ، وحسن خلقٍ ، وظرف
مجلسٍ ، وحلاوة وجهٍ ، أخذت العودَ وغنَّت :

ظبيُّ تكامل في نهايةِ حسنه ،

فزهـا ببهجته ، وتاه بصده ،

فالشمسُ ، تطلعُ من فرندِ جبينه ،

والبدرُ ، يغرقُ في شقائقِ خده ،

ملكُ الجمالِ بأسره ، فكأنما ،

حسنُ البريةِ كلَّها ، من عنده ،

ياربِّ ، هبْ لي وصله وبقائه ،

أبدآ ، فليستُ بعائشٍ من بعده ،

فطارت عقولنا ، وذهلت ألبابنا من حسن غنائها وظرفها .

فقلتُ : يا سيدي ، من هذا الذي تكامل في الحسنِ والبهاءِ

سوالك ؟ فقالت :

فانْ بحتْ ، نالتني عيونٌ كثيرةٌ ،
وأضعفتُ عن كتمانِه ، حين أكتُمُ ،

وقد اخبر الشعبيُّ قال : دخلت على بشر بن مروان ، وهو
والي العراق لأخيه عبد الملك بن مروان ، وعنده جارية في حجرها
عود ، فلمّا دخلتُ ، أمرها فوضعت العود ، فقلت له لا ينبغي
للامير ان يستحي من عبده .

قال : صدقت ثمَّ قال للجارية ، هات ما عندك ، فأخذت
العود وغنّنت :

وممّا شجاني ، أنها يوم ودّعتُ ،
تولّتْ ، وماء العينِ في الجفنِ ، حائرُ ،
فلمّا اعادت من بعيدٍ بنظرةٍ ،
إليّ ، التفاتاً ، أسلمتهُ المحاجرُ ،

فقلتُ : الصغير أكيسهما ، أريد «الزير» (١) وقلت : يا هذه
أرخي من بمكٍ وشدّي زيركِ ،

فقال لي بشر : ما علمك ؟
— أظنّ العملَ فيهما .

(١) الزير : اسم لآحد اوتار العود وكذلك البم .

قال : صدقت ، وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ يَقِينُهُ . لَمْ يَنْفَعْهُ يَقِينُهُ

وما يدلّنا على غرام القوم بالغناء وحبّهم للسّماع الحكاية
التّالية :

عبدالله الملقّب بالقس وسلاّمة .

وسلاّمة جارية من جواري المدينة قد نشأت على الغناء
وطبعت عليه فاتصلت بكبار المغنين تأخذ عنهم ومن اخبارها
ما يأتي :

كان عبدالله الملقّب بالقس عند اهل مكة بمنزلة عطّاء بن ابي
رباح في العبادة ، فمرّ يوماً بسلاّمة وهي تغني ، فقام يستمع
غناءها ، فرآه مولاها .

فقال له : هل لك ان تدخل فتسمع ؟

— لا

— الغناء خمرة الروح وجلوة الصدر .

فدخل وقال : اوقفني في موضع بحيث اراها ولا تراني ،
فغنّت سلاّمة صوتاً أطربه واعجبه . فقال له مولاها : هل لك
في ان احوّثا اليك ، فأبى ذلك عليه ، فما زال به حتى أجابه ،
وما زال يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها ، ولمّا شعرت

للحظة أياها ، غنّته :

رُبَّ رسولين ، لنا بلّغا ،
رسالة ، من قبل أن يبرحا ،
لم يعملّا خِفّاً ولا حافراً ،
ولا لساناً ، بالهوى مفصّحاً .
حتى استقلا ، بجوابيهما ،
بالطائر الميمون ، قد أنجحا ،
الظرف والطرف ، بعثناهما ،
فقضياً حاجاً ، وما صرّحاً ،
وفي الرواية أنّه تركها وقاب الى الله تعالى ، ورجع الى طريقته
التي كان عليها من الزهد والتقوى والذّكر

ابن ابي عتيق

قال عبدالله ابن جعفر لابن ابي عتيق : لو غنّتك فلانة جاريتي
صوتاً ، ما ادر كنتك ذكاتك ، (١)

— قل لها تفعل ، وليس عليك ، إن مت ، ضمان . فأخذه

(١) نفسك

بيده عبدالله وادخله منزله ، ثم أمر الجارية فخرجت وقال لها :
هاتي ، فغنت :

بهواك صيرني العزول نكالا ،
وجد السبيل ، الى المقال ، فقلنا ،
ونهب نومي ، عن جفوني ، فانتهم ،
وأمرت ليلى ، أن يطول ، فطالا ،

ومما يروى عن ابن ابي عتيق ايضا الخبر الآتي : وصف
عبدالله بن جعفر لعبد الملك بن مروان ، ان ابن ابي عتيق
مقل وكثير العيال ، فأمر عبد الملك بن مروان ، ان يبعث
به اليه ، فأتاه ابن جعفر بما دار بينه وبين عبد الملك ، وبعثه اليه .

فدخل ابن ابي عتيق على عبد الملك ، فوجده جالسا بين
جارتين قائمتين من يمينه ويساره ، تيسان كغصني بان ، بيد كل
جارية مروحة تروح بها ، قد كتبت على كل مروحة ما
يأتي :

إنني اجلب الرياح ، وبني يلعب الحجر ،
وحجاب ، اذا الحبيب ثنى الرأس للقبيل ،
وغياث اذا النديم تغنى او ارتجىل ،

وفي الثانية :

أنا في الكفّ لطيفه ، مسكني قصرُ الخليفة ،
أنا لا أصلحُ إلاّ ، لظريفٍ أو ظريفه ،
أو وصيفٍ حسنٍ القدّ شبيهٍ بالوصيفه ،

فلما نظر ابن أبي عتيق إلى الجاريتين ، هوتتا الدنيا عليه ،
وأنستاه سوء حاله ،

وقال : ان كانتا من الانس ، فما نساؤنا إلاّ من البهائم ،
وكان كلما كرّر بصره فيهما تذكّر الجنة ، فاذا تذكّر امرأته
وكان لها محبباً ، تذكّر النار .

وبدأ عبد الملك يتوجّع اليه بما حكى له ابن جعفر عنه ،
ويخبره بما له عنده ، من جميل الرأي .

فأكذب له ابن أبي عتيق كلّ ما حكاه له ابن جعفر عنه ،
ووصف له نفسه بغاية الطمأنينة والراحة وحسن الحال ، واتّصل
الخبر بعبد الله ابن جعفر ، فبجاءه وقال له : ما حملك على أن
كذبتني عند امير المؤمنين ؟

— أفكنت تراني ، تجلسني بين شمسٍ وقمر ، ثمّ أتفاقر ، لا
والله ، ما رأيت ذلك لنفسي ، وإن رأيت لي . فأعلم عبد الله
بذلك عبد الملك .

فقال عبدُ الملكِ : الجاريتان له .

فلما صارتا الى ابن ابي عتيق ، قام يقصد عبد الله بن جعفر
زائراً ، فوجده قد امتلأ فرحاً ، وهو يشرب ، وبين يديه عسٌّ
فيه عسلٌ ممزوج بمسكٍ وكافورٍ فقال له : مهمٌ ، قد والله
قبضت على الجاريتين .

— إشرَب

فتناول العسَّ فيجرعَ منه جرعةً ،

فقال له عبد الله ، زدْ ، فأبى ،

والتفت عبد الله الى جارية له ، كانت تغنّيه وقال لها : ان
هذا ، وقد اشار الى ابن ابي عتيق ، قد حاز اليوم غزالتين من
عند امير المؤمنين ، فخذني في نعتهما ، فحرَّكت الجارية العود
ثم غنّت :

عهدي بها ، في الحيّ قد جردتْ ،
صفراء ، مثل المهرة الضامرُ (١)
قد حجم الثدي ، على نحرها ،
في مشرقٍ ، ذي بهجةٍ ناضرُ ،

(١) الضامر : القليل اللحم

لو أسندتُ ميتاً ، الى صدرها ،
 قام . ولم يُنقل ، الى قابر ،
 حتّى يقولَ الناسُ ، بما رأوا ،
 يا عجباً ، للميت من ناشر ،
 فلما سمع ابن أبي عميق الابيات ، طرب ، ثم تناول العس
 فشرب عللاً بعد نهلٍ ، ورفع عقيرته وغنّى ،
 سقوني ، وقالوا لا تُغنّي ، ولو سقوا ،
 جبال حنّبن ، ما سقوني ، لغنّت

الزلفاء

نسوق هذه القصة لنبيّن اثر الغناء ومفعوله في النفوس ،
 ونصوّر حالة العصر وما كان عليه ارباب الثراء والحكم من متعة
 ولذادة ، فكان الحياة كانت كأساً وعوداً وانثى يحسّها اصحاب
 الثراء الذين آتتهم الدنيا خيراتها ونالوا حظوة في قلوب من تولّوا
 أمر الرعيّة فتحكموا بالعباد ، وراحوا وراء طلب اللذة
 يتراكضون ، يبذلون الغالي والنفيس ثمن جارية تزيّنهم تقّاح
 الجنان غصّاً لبداءً ، وتسكرهم بحسن طلعتها فتنسّيمهم الدنيا وما فيها

والواجب وما انتدبوا انفسهم اليه من ذلك ما اخبر به ابو سويد
قال : حدثني ابو زيد الاسدي قال : دخلت على سليمان بن عبد
الملك وهو جالس في ايوان مبلط بالرخام الاحمر ، ومفروش
بالديباج الاخضر ، في وسط بستان ملتف قد اثر واينع ، وعلى
رأسه وصائف كل واحدة منهن احسن من صاحبته ، وقد
غابت الشمس ، وغتت الاطيار فتجاوبت ، وصفقت الرياح
على الاشجار ، فتأملت ، فقلت : السلام عليك أيها الامير ورحمة
الله وبركاته ، وكان مطرقاً فرفع رأسه ،

وقال : ابا زيد ، في مثل هذا الحين تصاحبنا ؟

— اصلح الله الامير ، او قامت القيامة ؟

— نعم ، على اهل المحبة .

ثم أطرق ملياً ورفع رأسه ، وقال : ابا زيد ما يطيب في
يومنا هذا ؟

— اصلح الله الامير ، قهوة حمراء (١) في زجاجة بيضاء ،
تناولها غادة هيفاء ، مضمومة لفاء ، أشربها من كفها وامسح

(١) القهوة الحمراء : الخمرة

فأطرق سليمان مليّاً ، لا يردّ جواباً ، تنحدر من عينيه
عبرات بلا شهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، تمّ رفع
رأسه ، فقال : أبا زيد ، حضرت في يومٍ فيه انقضاء اجلك ومنتهى
مدّتك ، وتصمّ عمرك ، والله لأضربنّ عنقك او لتخبرني ما
أثار هذه الصفة من قلبك ؟

— اصلح الله الامير ، كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن
عبد الملك ، فاذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال
انفلت من شبكة صياد ، عليها قميص اسكندرانيّ يبيّن منها
بياض بدنّها وتدوير سرّتها ونقش تكتها ، وفي رجلها نعلان
صرّاران قد اشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بدوءا بتين
تضربان الى حقويها ، لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا
على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحراً وانف كأنه قصبة بلور
وفم كأنه جرح يقطر دمّاً وهي تقول عباد الله من لي بدواء ما
لا يشتكى وعلاج ما لا يُسمّى ، طال الحجاب وابطأ الجواب ،
والقلب طائر والعقل عازب ، والنفس والهة والفؤاد مختلس ،
والنوم محتبس ، رحمة الله على قومٍ عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ،
ولو كان الى الصبر حيلة او الى ترك الغرام سبيل لكان امراً
جميلاً . ثم اطرقت طويلاً ورفعت رأسها ، فقلت لها : ايّها

الجارية إنسية انت ام جنيّة؟ سماوية انت ام ارضية ؟ فقد اعجبني
ذكاء عقلك ، وإذهلني حسن منطقك ، فستوت وجهها بكمها
كأنها لم ترني ثم قالت : اعذر ايّتها المتكلم فما اوحش الساعد
بلا مساعد ، والمقاساة لصبّ معاند ثم انصرفت ، فوالله ما
أكلت طعاماً طيباً إلاّ غصصت به لذكرها ، ولا رأيت حسناً
الاّ سمج في عيني لحسنها فقال سليمان : أبا زيد ، كاد الجهل يستفزني
والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت ، أعلم يا أبا
زيد ، ان تلك التي رأيتها هي الزلفاء التي قيل فيها :

إنما الزلفاء ، يا قوّة ،

أخرجت من كيس دهبان ،

شراؤها على أخي الف الف درهم ، وهي عاشقة لمن باعها ،
والله ان مات ما يموت إلاّ بحبّها ، ولا يدخل القبر إلاّ بغصتها ،
وفي الصبر سلوة وفي توقيع الموت نبيه ، قم أبا زيد في دعة الله
تعالى ، ثم قال يا غلام نقله ببدره فأخذتها وانصرفت .

وما سقنا هذه القصة الا لنبين ما كان يبذل الامراء في سبيل
ملاذمهم ، والرعية كادحة مسكينة تعمل ، وتقدم لمن لا يخدمها
بعشر معشار ما تنعم عليه من اموال ، وتبذل في سبيله وسبيل
مرضاته وما كان هذا في العصر الذي نحن فيه بل تحطاه الى العصر
العباسي وما بعده ، ولا عجب فحياة الرغدينشأ عنها الانغماس

في الشهوات ، وهذا الرغد لم يكن الا في قصور الحكّام ومن
ولتوا امور الرعية . فاهلّتهم الانثى عن كل ما حولهم فانطرحوا
بين يديها يتوشفون رحيق الحياة نهلة نهلة .

العصر العباسي

تخلّف العصر الامويّ وقد عرضنا الى ذكر نخبة من مغنياته
وننتقل الى العصر العباسي ، وفيه امتزج العرب بالعجم وتكوّنت
بين سواد الناس والحياة عادات ، دعت اليها حياة الترف ، وصار
للغرب مذاهب في الغناء خاصة ، واصبح هذا الفنّ علماً قائماً
بنفسه ، فعمدوا الى تدوينه ، فالتّف فيه يونس بن سليمان ، وقد
أخذ عن معبد ، ووضع الخليل بن احمد كتاباً في الموسيقى ،
قيل : انه وضع فيه اصناف النغم ، وحصر به انواع اللحن ،
وحدّد ذلك كلّّه ، وخصّصه ، وذكر مبالغ اقسامه ، ونهايات
اعداده وقد ضاع تأليفه ، كما ضاع تأليف يونس ، والذين التّفوا
بذلك كثيرٌ ، عدّدّهم ابن النديم في فهرسته ، وعندهم اخذت المغنيات

الجواري والغناء

وقد دعا الشّغف بالغناء تعليمه الجواري ، للتمتّع بغنائهنّ

ودعا هذا الفنّ الى تعلم الادب ، لانّ الناس كانوا يتغنّون
بالشعر كشعر عمر بن ابي ربيعة ، وبشّار ومسلم بن الوليد ، وابي
الغضائفة وغيرهم ، وكان من الطبيعيّ ان المغنية ، لا تحسن الغناء
وتوقيع اللحن ، إن كانت لا تحفظ كثيراً من الشعر وتجيّد
مخارج الحروف .

وقد نشأ فيهنّ مَنْ كُنَّ يغنين بما يخترعن من شعر وصوت ،
وذكرت المصادر الادبيّة ، ان عريب المغنية كانت تروي الجوراي
الاشعار ، ليتغنّين بها وعريب هي شيخة الغناء العبّاسي كما كانت
جميلة شيخة الغناء الحجازي ، وتواترت الروايات بشأن اتصافها بالخلفاء
والعظماء والقوّاد ، وفيها تباين في صحة نسبها وحياتها ، والمعول
عليه انها ابنة جعفر بن يحيى البرمكي ، قد ابتذل حجابها بعد نكبة
البرامكة على الارجح .

وذكر المبرّد في كتابه « الكامل » قال : « حدّثني الجاحظ
عن ابراهيم بن السندي قال : كانت تصوير اليّ » هاشمية « جارية
« حمدونة » في حاجات صاحبها ، فاجمع نفسي لها واطرد الخواطر
من فكري ، واحضر ذهني جهدي ، خوفاً من ان تورّد عليّ ما
لا افهمه لبعدي غورها واقتدارها ، على ان تجري على لسانها ما في
قلبي ، وكذلك ما يؤثّر عن « خالصة » و « عتبة » جاريتي

وذكر المسعودي : انه كان للمتوكل جارية تسمى « محبوبة » كانت لرجلٍ من اهل الطائف ، قد ادبها وثقفها وعلمها صنوف العلم ، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس . وذكر صاحب الاغانى ايضاً : انه كان لابن رامين منزل في الكوفة ، وله جوار مغنيات ، اشهرهنّ ، سلامة الزرقاء وكان اجلّ مقيّنين (١) بالكوفة ، يجتمع في بيته الفتيان للسمع والشراب ، ويقولون فيه وفي قيناته الشعر ، وممن كان يختلف اليه روح بن حاتم المهلبى ، ومحمد بن الاشعث ومعن بن زائدة ، وابن المقفّع وامثالهم ، يسمعون وينفقون عن سعة ، وينشدون اشعار الغزل ، ولما خرج ابن رامين حاجاً بجواريه ، بكى الشعراء لخروجه ، ووصفوا لوعتهم من فرقة مجلسه ، كما وصفوا كثرة الناس الذين كانوا يغشون بيته ، وقد قال احدهم :

أية حالٍ ، يا ابن رامين ،
 حالُ المحبين المساكين ،
 تركتهم موثى ، ولم يتلفوا ،
 قد جرّعوا منك الأمرين ،

(١) المقيّن : معلم الجوارى والمتاجر بهن

وسرت في ركبٍ ، على طيبةٍ ،
 ركبٍ تهامٍ ويمانين ،
 ياراعي الذود ، لقد رعتهم ،
 ويلك ، من روع المحبين (١)
 فرقتَ جمعاً ، لا يرى مثلهم ،
 بين دروب الروم والصين ،

وغنّت صاحبة جعفر بن خالد البرمكي :

عزمتُ على قلبي ، بأن اكنم الهوى ،
 فضجّ ونادى ، أنني غير عاقلٍ ،
 فإنّ حان موتي ، لم أدعك بغصتي ،
 وأقررتُ قبل الموتِ ، أنك قاتلي ،

وذكروا : ان جارية الباقي أنشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يا أحسنَ العالمِ حتّى متى ؟
 يرتفع الحبُّ وأنحطُّ ،
 وكيفَ منجائي ، وبجر الهوى ،
 مُدّ حَفَّ بي ، ليس له شطُّ ،

(١) الذود : القطيع من غنم ونحوه ، رعتهم : اخفتهم .

يُدرِكُك الوصلُ ، فتَنجُو بِهِ ،
أو يَقعُ البحرُ ، فتَنحَطُّ ،

من اغانيهن

ولي كبدٌ ، مَقْرُوحَةٌ مَن يَلِيعُنِي ،
بها كبدًا ، لست بذاتِ قروحِ ،
أبأها عليَّ الناسُ ، لا يشترونها ،
وَمَن يشتري ، ذا عِلَّةٍ بصحيحِ ،
أثْنُ من الشوقِ الذي بجوانحي ،
أثْنُ غصيصٍ ، بالشرابِ قريحِ ،

ومما أنشدن قول يزيد بن معاوية :

نالتُ على يديها ، ما لم تنلَّهُ يدي ،
نقشاً على مِعصَمٍ أوهتُ به جِلدي ،
كأنَّه طرقُ نملٍ في أناملِها ،
أوروضة ، رصَّعتها السحبُ بالبرد ،

خافت على يديها ، من نبل مقلتها ،
فألبست زندها ، درعاً من الزرد ،
إنسية لو رأتها الشمس ، ما طلعت ،
من بعد رؤيتها ، يوماً على أحد ،
سألتها الوصل ، قالت أنت تعرفنا ،
من رام منّا وصلاً ، مات بالكمد (١)
فكم قتيل لنا ، في الحب ، مات جوى ،
من الغرام ، فلم يبد ، ولم يعد ،
فقلت : استغفر الرحمن من زلل ،
إنّ المحب قتيل الصبر والجلد ،
قد خلقتني طريحاً ، وهي قائلة ،
تأمّلوا ، كيف فعل الظبي بالأسد ،
قالت لطيف خيال زارني ومضى :
بالله صفه ، ولا تنقص ولا تزد
فقال خلقة ، لو مات من ظماً ،
وقلت ، قف عن ورود الماء لم يرد ،

(١) الكمد : الحزن

قالتُ صدقتَ الوفا ، فالحبَّ شيمتهُ ،
 يابردَ ذاك الذي قالت : على كبدي ،
 واسترجعتُ سألتُ عني ، ففيل لها ،
 ما فيه من رَمَقٍ ، دقتُ يداً ببيدِ (١)
 واستمطرتُ لؤلؤاً ، من ترجسٍ وسقتُ ،
 ورداً ، وعضتُ على العناب بالبردِ ، (٢)
 هم يحسدوني على موتي ، فوا أسفي ،
 حتىَّ على الموتِ ، لا أخلو من الحسدِ ،

القيان في القصور

إِنَّ مَنْ يُلْقِي نَظْرَةً عَلَى الْقُصُورِ الْعِبَّاسِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَا فِي
 الْأَدَبِ وَتَارِيخِهِ ، وَيَمَعِنُ النَّظَرَ فِي تَضَاعِيفِ الْجَامِعِ ، يَجِدُ مَا
 كَانَتْ عَلَيْهِ الدَّوْلَةُ فِي إِبَّانِ أَيَّامِهَا الْأَوَّلِ ، مِنْ رَخَاءٍ وَجَبُوحَةٍ
 عَيْشٍ ، وَمِنْ أَمْوَالٍ مُتَدَفِّقَةٍ تَحْمِلُ مِنَ الْآفَاقِ الْبَعِيدَةِ ، إِلَى

(١) رَمَقٌ بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

(٢) الْعَنَابُ ثَمَرُ أَحْمَرٍ يَشْبَهُ حَبَّ الزَّيْتُونِ اسْتَعِيرَ إِلَى الشَّفَةِ ، الْبَرْدُ ، كِرَاتُ
 مَاءٍ صَغِيرَةٍ مُتَجَمِّدَةٍ اسْتَعِيرَتْ إِلَى الْإِسْنَانِ

بغداد، بلد العلم والادب ، بلد المرح والعبث ، بلد الشعر والغناء ،
بلد الجواري والقيان .

هذا قصر يُشرف على دجلة ، تيس فيه الجواري دلالةً
وغنجاً ، يرقصن ويغنين ، ضاربات على الاعواد ، وناقرات على
الدفوف ، انغماساً تذهل السامع وتسكره ، وهذه روضة صفت
فيها الأرائك ، عليها المغنيات يبعثن في ملء الفضاء أصواتهن ،
يستميل الاثرياء والاغنياء ، فتتناثر الدنانير ثناً وتحمّل الواحدة
تلوى الاخرى الى الدور ، متعة وقرّة عين ، ومن أقوالهم :
«عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوّج الحرائر» .

ولعلّ ما نفضّه صورة حياة ترف القصور ، والاستمتاع
بالسمع وما يتبع من ادب المغنيات .

حدّث الاصمعيّ قال : بعث هارون الرشيد وهو بالرقّة ،
يطلبني ، فحُمِلت اليه ، فانزلني الفضل بن الربيع ، ثم ادخلني عليه
وقت الغروب ، فاستدنانني وقال : يا عبد الملك ، وجهت اليك
بسبب جاريتين ، أهديتا إليّ ، وقد اخذتا طرفاً من الادب ،
احببت ان تبوز ما عندهما وتسير على الصواب فيهما ، ثم امر
باحضارهما ، فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قطّ ، فقلت
لواحدةٍ منهما : ما عندك من العلم ؟

— ما امر الله في كتابه ، ثمّ ما ينظر فيه الناس من الاشعار
والاخبار .

فسألتها عن حروف القرآن ، فأجابتنني كأنّها تقرأ في كتاب
الله ، ثمّ سألتها عن الاشعار والاخبار والنحو والعروض فما
قصّرت عن جوابي في كلّ فنّ أخذت فيه . فقلت لها : أنشدينا
شيئاً ، فأنشدت :

يا غياث البلاد في كلّ محلّ ،
ما يريدُ العبادُ ، إلّا رضاك ،
لا ومن شرف الامام وأعلى ،
ما أطاعَ الالهَ ، عبدٌ عصاك ،

فقلت : يا امير المؤمنين ، ما رأيت امرأة في نسك رجل
مثلها وخبرت الثانية ، فوجدتها دونها ، فأمر ان تصنع تلك
الجارية لِتُحْمَلَ اليه ، في تلك الليلة .

ثمّ قال لي : يا عبد الملك ، أنا ضجرٌ ، وأحبُّ ان تسمعي
حديثاً ممّا سمعتَ من أعاجيب الزمان ، نفرّج به .

فقلت : يا امير المؤمنين ، كان لي صاحب في بدو بني فلان ،
وكنت أغشاه ، واتحدّث معه ، وقد اتت عليه ستّ وتسعون

سنة ، وهو اصح الناس ذهنًا ، واقواهم بدنًا ، فغبت عنه ، ثم
أتيته ، فوجدته ناحل البدن ، كاسف البال فسأله ، عن
سبب تغييره ؟

فقال : قصدت بعض القرابة ، فالفيت عندهم جارية ، قد
طالت بالورس بدنًا ، وفي عنقها طبل تنشد عليه :

محاسنها بسهام المنايا ،
مريشة بانواع الخطوب ،
تري ، ريب المنون ، بين سهام ،
تصيب بنصله ، ملح القلوب ،

فقلت :

ففي شفتي من موضع الطبل ، ترتعي ،
كما قد اجت الطبل من جيدك الحسن ،
هبيني عودًا ، جوؤه تحت متنه ،
يمتعي ، ما بين نحرِك والبدن ،

فلما سمعت شعري ، رمت بالطبل في وجهي ، ودخلت
الحيمة ، فوقفت حتى حمت الشمس على هفرقي ، ولم تخرج

فانصرفت قريح العين ، فهذا التغير من عشقي لها .

فضحك الرشيد حتى استلقى ، وقال : ويلك يا عبد الملك ابن
متّ وتسمعين يعشقي ؟

قلت : قد كان هذا ، يا امير المؤمنين .

وما سقنا هذه الرواية على ما فيها من مبالغة إلاّ
لنبيين ما كانت نصيب الجواري المغنيات من العناية
في امر تعليمهنّ علوم ذلك العصر ، وقد كان عصر أدبٍ وشعرٍ
وغناءٍ ومجون الى غير ذلك . ومن اخبار الرشيد انه بعث في
طلب ذات الحال وقد مضى الليل الاّ اقلته فحضرت اليه ،
فوضعها في حجرة وقال لها : غنّي فغنّيت بما لا يتفق مع
العروض :

اما تعلم ذات الحال فوق الشفه العليا
بأني لست اهوى غيرها شيئاً من الدنيا
واني عن جميع الناس إلاّ عنهم اعمى
واني لوسقيت الدهر من ريقك لا اروي
فطرب الرشيد وتونج سكرأ ممّا سمع :

ومن المرويّ ايضاً ، ما حدّث به عليّ بن الجهم قال : لمّا

افضت الخلافة الى المتوكل ، أهدي اليه الناس على أقدارهم ،
 فأهدي اليه ابن طاهر ، جارية اديبة تسمى « قبيحة » تقول الشعر
 وتلحّنه ، وتحسن من كلّ علمٍ احسنه ، فجلّت من قلب المتوكل
 محلاً جليلاً ، فدخلت يوماً للمنادمة ، فخرج المتوكل وهو يضحك
 وقال : يا عليّ ، دخلتُ فرأيتُ « قبيحة » قد كتبت على خدّها
 بالمسك جعفر ، فما رأيت احسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فسبقتني
 واخذت عودها وغنّت :

وكتابةٍ بالمسك في الخدّ جعفرا ،
 بنفسي ، خطّ المسك ، من حيث أثرا ،
 لئن أودعت سطرّاً ، من المسك خدّها ،
 لقد أودعت قلبي ، من الوجد أسطرا ،
 فيا مَنْ لملوكٍ ، يظلُّ مليكهم ،
 مطيعاً له ، فيا أسراً وأجهرها ،
 ويا مَنْ لعيني ، مَنْ ، رأى مثل جعفر ،
 سقى الله صوب المسكرات لجعفرا ،

قال : فنقلتُ خواطري ، حتى كأنني ما أحسنُ حرفاً من
 الشعر ، وقلت للمتوكل : أقلّ ، فقد واللهِ غربَ عني ذهني ،
 فلم يزل يعيّرني به .

ثم دخلت عليه للمنامة بعد ذلك فقال يا علي أعلمت اني غاضبت
« قبيحة » وكان يسميها « محبوبة » وأمرتها ان تلتزم مقصورتها ،
ومنعت اهل القصر من كلامها .

فقلت : ياسيدي ، إن غاضبتك اليوم ، فصالحها غداً . ولما
كان من الغد دخلت عليه فقال : ويحك ، يا علي رأيت البارحة في
النوم كأنني صالحتُ « محبوبة » (قبيحة) فقالت جاريته « شاطر »
ياسيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة .

فقام المتوكل وقال : ننظر ما هي ؟

فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها فاذا هي تغني :

ادورُ في القصر ، كي أرى احداً ،
اشكوا اليه ، فلا يكلمني ،
فمن شفيع لنا . الى مَلِكٍ ،
قد زارني ، في الكرى ، يعاتبني ،
حتى اذا ما الصباحُ عادَ لنا ،
عادَ الى هجره ، ففارقني ،

فصفق المتوكل طرباً ، فلما سمعته ، خرجت تقبل رجليه ،
وترغ خدّها في التراب ، حتى اخذ بيدها راضياً عنها ، فيا الكرامة .

المرأة وبالحريتها ، اين كانت الحركة النسائية في ذلك العصر ،
فلم لم تطالب ولو بجزء من حقها ؟ أما كانت المرأة سلعة تباع
وتشتري ، ولا تُقننى إلا للمتعة او الخدمة ؟ ...

ومن المرويات الادبية ، عن غرام الخلفاء العباسيين ومن
نادمهم ، ما يأتي :

قيل كان الواثق اذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه ،
ومن كان معه من ندمائه وشرب رقد ولم يخرج ، فشرب يوماً
وخرج من كان عنده ممن لم يشاركوا بالشراب ، إلا مغنياً
واحداً شرب واطهر التراقد ، وكانت مغنية من حظايا الواثق
نائمة ، فلما خلا المجلس ، كتب المغني رقعة ورمى بها اليها فاذا بها :

إني رأيتك في المنام ، ضجيعتي ،
مستشفاً من ريق فيك البارد ،
وكان كفك في يدي وكأننا ،
بتنا جميعاً ، في لحاف واحد ،
ثم انتهت ، ومنكباك ، كلاهما ،
في راحتي ، وتحت خدك ساعدي ،
فقطعت يومي كله متراقداً ،
لأراك في نومي ، ولست براقداً ،

فكتبت اليه على ظهرها تقول :

خيراً رأيتَ ، وكل ما امّلتَه ،
ستنالُه منيَّ ، برغم الحاسدِ ،
وتبيت بين خلاخلي ودماجلي ،
وتحلّ بين مراشفي ، ونواهدي ،
ونكون انعمَ عاشقين ، تعاطياً ،
'ملحَ الحديث ، بلا مخافةٍ راصدٍ ،

فمن هذه الرواية نعلم ما كان يحدث في قصور بغداد ، وليس
ذلك عجباً ، والارواح جنود مجنّدة ، ما كان منها متآلفاً اتحد
وما كان منها متخالفاً تنافر ، والحياة بما فيها غمزة عين وبسمة
ثغرٍ ، وقبلة ولقاء ثم فراق ابدِيٍّ ، لا رجعة بعده ، الى ان
تكوّن الارض جسمين تتآلف روحاهما وتتحدان

باب الذهب

وحدّث عليّ بن الجهم عن نفسه قال : قلت لقيمة :

هل تعلمين وراء الحب منزلة ؟

تدني اليك ، فان الحب اقصاني (١)

فقلت : تأتي من باب الذهب ، وأنشدت :

اجعل شفيحك منقوشاً تقدّمه ،

فلم يزل مدنياً ، من ليس بالداني ،

ومن جميل مطارحات المغنيات وحضور ذهنهنّ ما يأتي :

قيل إنّ اشعث كان يختلف الى قينة بالمدينة ، فجلس عندها يوماً ،
يطارحها الغناء ، فلمّا اراد الخروج قال لها : ناوليني خاتمك
أذكرك به .

قالت : إنّّه ذهبٌ ، وأخاف ان تذهب ، ولكن خذ هذا

العود فلعلّك تعود ، فناولته عوداً من الارض ، وقالت : هو لك
وللذكرى أبقى ، فانّه لا يباع ولا يشترى ،

من اغانيهن

حمامات اللوى

ألا يا حمامات اللوى ، عُدنَ عوداً ،

فأني الى اصواتي كن حزينٌ ،

(١) تدني : تقرب . اقصاني : ابعدي

قعدنَ على أيلِكِ ، فكدنَ يمتعني ،
 وكدتُ بأسراري ، لهنَّ أبينُ (١) ،
 دعوتُ فريقاً ، بالهدير كأنما ،
 شربنَ الحميَّ ، او بهنَّ جنوبُ
 فلم ترَ عيني ، مثلهنَّ حمائاً ،
 بكينَ ، ولم تدمع ، لهنَّ عيونُ ،

ألا يا صبا نجد

ألا يا صبا نجدِ ، متى هجتَ من نجدِ ؟
 فقد زادني مسراكِ وجداً على وجدِي (٢)
 لقد هتفت ورقاءُ ، في رونقِ الضحى ،
 على فتنِ الاغصانِ بالبان والرندِ (٣) ،
 بكت مثل ما يبكي الوليد صبايةً ،
 وأبدت من الاشواقِ ما لم أكن أبدي ،

(١) الايك : نوع من الشجر

(٢) وجد : شوق

(٣) ورقاء : حمامة . فتن : الاغصان الرند : اسم لشجر طيب الرائحة .

وقد زعموا : أنَّ الحبَّ إذا دنا ،
يَمَلُّ ، وأنَّ البعدَ يشفي من الوجدِ ،
بكلِّ تداوينا ، فلم يشفَ ما بنا ،
على أنَّ قربَ الدارِ خيرٌ من البعدِ ،
على أنَّ قربَ الدارِ ليس بنافعٍ ،
إذا كانَ مَنْ تهوهُ ، ليس بذِي ودٍّ ،

خالد والجارية الدنانير

قال أحكم الوادي : دخلتُ يوماً على يحيى بن خالد فقال لي :
يا أبا يحيى ما رأيك في خمسمائة دينار قد حضرت . قلتُ : ومن
لي بها ؟

قال : تلقي لحنك في « ذكرتكَ أن فاض الفراتُ بأرضنا »
على ذنانير ، فها هي ذه . وهذا سلام واقف معك ، ومخرجها
إليك . وأنا راكبٌ إلى أمير المؤمنين ، ولستُ أنصرفَ من
مجلس المظالم إلى وقتِ الظهر . فكسَّدها (١) فيه . فإذا أحكمته
فلك خمسمائة دينار .

(١) الكد اللاحق في محاولة الشيء ، وكده : طلب منه الكد

فقلت دنانير : ياسيدي : ابو يحيى ، يأخذ خمسمائة دينار
وينصرف وانا ابقى معك اقا سيك عمري كله . فقال لها : إن
حفظته فلك الف دينار . وقام فمضى ،

فقلت لها : ياسيدي ، أشغلي نفسك بذا . فانك تهين لي الخمسمائة
دينار بحفظك اياه ، وتفوزين بالالف الدينار ، وإلا بطل هذا .
فلم أزل معها أكدها ونفسي ، وتغنييني حتى انصرف يحيى ، فدعا
بماء وطست . ثم قال : ابا يحيى غنّ الصوت كما كنت تغنيه .

فقلت : هلكت ، يسمعه مني وليس هو بمن يحفى عليه ،
ثم يسمعه منها فلا يرضاه . فلم اجد بداً من الغناء .

ثم قال : غنّيه انت الآن . فغنّيت .

فقال والله ما أرى إلا خيراً

فقلت : جعلت فداك ، انا امضغ هذا منذ اكثر من خمسين
سنة كما امضغ الحبز ، وهذه اخذته الساعة وهو يذلُّ لها بعدي ،
وتجتريء عليه ، وتزداد حسناً في صوتها .

فقال : صدقت . هات ياسلام خمسمائة دينار ، ولها الف
دينار ففعل .

فقلت دنانير : وحياتك ياسيدي لاشاطرنّ أستاذي الالف

قال : ذلك اليك . ففعلت ، فانصرفت وقد اخذت بهذا الصوت الف دينار . واما دنانير فهي جارية . كوفية ، صفراء اللون في ما نقل الرواة ، عُرِفَت بجلاوة الحديث وقراءة الشعر وحبّ الادب وكان مولاها الشاعر العباسي « محمد بن كناسة » نشأت في داره وتأثرت بشعره وتعلمت قرض الشعر ولكنها لم تبلغ به حدّ الجودة فيهمّ به الرواة ، ولم يشتهر امرها الاّ يوم صارت في ملك يمين يحيى بن خالد البرمكي .

وهذا ما يوحى اليها غرام القوم بالسماع ، ونخيّل لي ان الحياة ما كانت عندهم إلاّ أكلًا وشربًا وسماعًا وضربة عودٍ ونقرة دُفّ بين القيان واحضان الجوّاري .

ويتقاضانا البحث في مثل هذا المقام ان نعرض الى شيءٍ من ذكر لباس القيان وحليهنّ وآلات الطرب التي كنّ يوقعنّ عليها .

الالبسة والحلي وآلات الطرب

كانت البسة النساء تؤلف قميصاً وسربالاً (١) ، والحديشة السنن تلبس شوذراً وهو ملحفة او برد يشق من غير جيب او اكمام . ويضربن برقعاً على وجوههن ، وهو خريقة تثقب للعينين فتستر الوجه فقط

البريم : خيطان مختلفان احمر وابيض ، تشده الجارية على وسطها وعضدها . وحبل للمرأة فيه لوان مزين بجوهر .

البطماح : هو ما كان احد طرفيه نخملا او وسطه نخمل وطرفاه منيران

البقيرة : هي كالاتب ، اي قميص واسع دون الملحفة ، تغطي به الجارية ثيابها من فوق

الجئنة : خريقة تغطي من رأسها ما أقبل وأدبر ، غير وسطه

(١) السربال : القميص او الدرع وكل ما يلبس

وتغطي قسماً من الوجه وجنبي الصدر ، وفيها فتحتان للعينين
كالبرقع

العصبة : تجعل على الجبين وتعقد من وراء ، وسنعرض
لذكرها وما كان يكتب عليها .
هذه أشهر الالبسة وكان هنّ غير ذلك وأما الحلي والزينة
فهي :

الحلي والزينة

كانت نساء العرب تتزيّن بالحواطم كالرجال وربما تختمن في
اصابعهنّ العشر ، ويلبسن في سواعدهنّ الاساور وفي امثالهم -
لو ذات سوار لطمتني (١) -

وكنّ يتزين بالجلول ، ويسمّى ايضاً الاحبال مفردها حبل
وهو الخخال ، من فضة كسوار كبير ، تجعله المرأة في رجليها ،
والدملج والدملوج وهو المعصّد كالسوار ، يجعل في العضد او
المعصم ، وكنّ يتقلدن العقود في اعناقهنّ ، والافراط في
آذانهنّ ، ومنهنّ من يجعلن خزاماً في الانف . وأما الحُضاض

(١) المثل لحاتم الطائي : يريد ان لا يقتص من النساء

فهو الشيء اليسير من الحليّ يضرب في نفى الحليّ عن المرأة وفي ذلك قولهم :

ولو أشرفت من كفة الستر عاطلا (١) ،

لقلّت : غزالٌ ، ما عليه خضاض ،

وكان من عادة النساء ، ان يخضبن اظافر اليدين بالحناء بخلاف اليدين والرجلين ، فان خضابهنّ يكون بلونٍ اسمر مصفر ، ويكتحلن بالآئد ، ومن عاداتهنّ تذير الآئد على شفاههنّ والثلاث اي مغارز الاسنان ، ليشتد لمعان اسنانهنّ ، وبه يتحصل لهنّ الوشم الذي يختصن به غالباً ومنه قول طرفه :

خولة اطلالٌ ، ببرقةٍ نهدٍ ،

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ،

ومن عاداتهنّ إجمار الشعر وترجيله ، وفي اقوالهم : جمّرت المرأة شعرها ، اذا جمعته وعقدته في قفاها .

وكانت القيان وغيرهنّ من النساء يحففن وجوههن لازالة ما عليه من الشعر تحسيناً ، ويزجن الحواجب ، فيطيلنّها الى ذنابى أعينهن ، ويطلين وجوههنّ بالطلاء الابيض والاحمر الى

(١) العاطل : المرأة التي ليس عليها حلى

غير ذلك ممّا لا يشار كهنّ به النساء البدويات ، والى ذلك أشار
ابو الطيّب المتنبّي :

حسنُ الحضارة ، مجلوبٌ بتطريةٍ ،
وفي البداوةِ ، حسنٌ غير مجلوبٍ ،

التطيّب

أمّا التطيّب فهو عادة قديمة منذ العهد الجاهليّ ، فقد كان
لكلّ امرأة «قشوة» طيب اي «قفة» من خوص تجمع فيها المرأة
ادوات زينتها .

ومن امثالهم : لا عطر بعد عروس ، وهو مثل يضرب في
ذمّ اذّ خار الشيء وقت الحاجة ، وقد قالته امرأة من بني عذرة
يقال لها اسماء بنت عبدالله ، مات زوجها واسمه عروس ، فتزوّجها
آخر وكان أنجر بخيلاً ذميماً ، فأراد ان يطعن بها ، فقال لها :
ضمّي اليك عطرک .

فقالت : لا عطر بعد عروس ، فذهبت مثلاً .

وكان الطيب مصنوعاً من المسك والعنبر واللبان والكافور
والناردين الى غير ذلك من انواع الطيوب التي كانت تنقل من
الهند .

آلات الطرب

عندما امتدت رقعة البلاد العربية في الشرق والغرب ، وصار العرب في نضارة من العيش ، فتفرّق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا الى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب فغنّوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، ومن آلاتهم : الشبّابة ، والزلامى : وهو مزمار مصنوع من قطعتين منفردتين على شكل قسبة جوفاء منحوتة الجانبين ، مشقوبه الجوانب ، ينفخ فيها بقسبة اخرى رفيعة توصل الصوت الى جوفها فيخرج سريعاً والبوق والبربط وهو يشبه العود . والرباب والقانون وغير ذلك بما هو معروف الى يومنا هذا . وسمع العرب تلحينهم للاصوات وهو غير ما ألفوه ، فلاحنوا عليها اشعارهم ، وظهر بالمدينة ، نشيط الفارسي ، وطويس وسائب حائر مولى عبدالله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه ، واجادوا فيه ثم اخذ عنهم معبد المغني وطبقته ، وابن سريج ونظائره ، وما زالت صناعة الغناء تتدرّج الى ان كملت في ايام بني العباس .

واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي

بها يتروّثم عليه ، وجعل صنفاً وحده ، واتخذت آلات اخرى
للرقص تسمى الكرج ، وهي ثايل خيل مسرّجة من الخشب
معلّقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاً ،
الحيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون الى غير ذلك

العصائب وما كتب عليها

امّا العصائب التي كانت النساء تضربها على جباههنّ معقودة الى
الوراء ، قد كلف بها الجوّاري كلفاً شديداً ، فقد كنّ يستهوين
القاريء بها .

قيل انه كان لهارون الرشيد جوارٍ ، عصائبهنّ منتظمة بالدّر
والياقوت ، مكتوب عليها بصفائح الذهب :

ظلمتني في الحبّ ، يا ظالم ،
والله فيما بيننا ، حاكم ،

وفي عصابة اخرى :

مالي رميت ، فلم تصبك سهامي ،
ورميتني ، فأصبتني يا رامي ،

وفي غيرها :

« وضع الحدّ للهوى عزّ »

وكان في عصابةٍ ، هلالٌ مكتوب عليه :

أفلتُ من حور الجنانِ وخُلقت فتنةً مَنْ يراني

ومن اخبار اسحاق بن ابراهيم ، انه دخل على الامين محمد بن
زبيدة ، وعلى رأسه وصائف في قراطق مفروجة ، بيد كلّ وصيفة
منهنّ مروحة مكتوب عليها :

لي طاب العيش في الصيفِ وبِطاب السرور ،
ممسكي ينفي اذى الحرّ اذا اشتدّ الحرور ،
النّدى والجود في وجهِ امين الله نور ،
ملك أسامه الشبه واخلاه النظير ،

ومن مراجعة المجاميع الادبية كالعقدِ وعيون الانباء
والمحاسن والاضداد وغيرها ، نلمح ان الكتابة على المراوح ولا سيما
العصائب قد تبارت به الجواري والقيان ، حتى ينسدر ان ترى
عصابة ليس عليها كتابة كمثل :

ألا باللهِ قولوا ، يا رجالُ ،
أشمسُ في العصابةِ ام هلالُ ،

أتموون الحياة بلا جنون ،
فكفّوا عن ملاحظة العيون ،

وكتبت وردة جارية « الماهاني » على عصابتها ، وكانت تجيد
الغناء مع فصاحتها وبراعتها :

تمّت وتمّ الحسنُ في وجهها ،
فكلّ شيءٍ ، ما سواها محال ،
للناس في الشهر هلال ، ولي ،
في وجهها ، في كلّ يوم هلال ،

واخذت من ابن هانيء شاعر الاندلس بيتين كتبتهما على
عصابتها وهما :

يا رامياً ، ليس يدري ما الذي فعلا ،
عليك عقلي ، فان السهم قد قتلا ،
أجريته من مجاري الروح من بدني ،
فالنفس في تعبٍ ، والقلب قد شغلا ،

ومما اخبر به عليّ بن الجهم قال : خرجت علينا « عالج »
جارية « خالصة » كأنها خوط بانٍ ، وهي تليس في ورقه ، وعلى
طرفها مكتوب بالغالية ، وكانت « عالج » من مجّان اهل بغداد

يا هلالاً من القصور تجلّى ،
صام طرفي لمقلتيك وصلّى ،
لست أدري ، أطل ليلى ، أم لا ،
كيف يدري ، بذاك من يتقلّى ،
لو تفرّغت لاستطالة ليلى ،
ولرعي النجوم ، كنت 'مخلّا' ،

وقد تخطّى ادب العصائب الى الاثواب ، من ذلك ما
كتبته « منال » وعليها درع خام ، وعلى جانبه الايمن مكتوب :

كتب الطرف ، في فؤادي كتاباً ،
هو بالشوق ، والهوى مختوم ،

وعلى الجانب الايسر مكتوب :

كان طرفي على فؤادي بلاء ،
إنّ طرفي على فؤادي مشوم ،

وكتبت « شعب » على قلنسوة جاريته « شكل » :

لم القَ ذا شجنٍ ، يروح بحبِّه ،
 إلاَّ حسبتك ، ذلك المحبوبة ،
 حذراً عليك وإنني بك واثقٌ ،
 ان لا ينالَ سواي منك نصيبا ،

فانت ترى ما في معاني هذه الابيات من استئثاره للنفس
 وتهيج للشعور ، وقد ارادت « شعب » ان تستأثر بحبِّ من
 رغبت به ، فجعلت جاريتهما « شكل » فخناً تصيد به ، ونحن نعلم
 جيداً ان الجواري كنَّ ملكاً للسادة يتصرفون بهنَّ كما
 يشاؤون ، يتهادونهنَّ كسلعة ، وكيف لا يكون ذلك كذلك
 وهُنَّ يُبَعْنَ ويشترينَ كما تباع السلع والامتعة ، ولم يكن
 للجواري قانون يحميهنَّ كما يظهر ، من ظلم السادة ، إلاَّ رحمة
 السيّد وشفقته وحبّه وعطفه .

وكان الاستمتاع بالجواري على كثرتهم داعية الى احتقار
 المرأة ، وعدم الثقة بها ، والنيل من عفتها ، بما دعا الشعراء الى
 التحذير منها ، وفي جملتهم ابو العلاء المعري ، الذي لم ير في المرأة
 إلاَّ حيلة تنفث السمَّ وتخدع بلين الملمس :

وامّا الخود في مسارها كربة السمِّ في تسربها
 وهو ينكر اليها الوفاء ويتهم عفتها :

فكم بكرت تسقي الامر حليلها ،
من الغار او تسقي الخليل رضابها ،

ويذهب الى ابعد من ذلك ويرى ان الرجل مرغم في ان
يقبل المشاركة في زوجه :

ترجى عندها وصلًا ،
رويداً إنَّها عارك ،
تخون الأوَّل العبد ،
فخلَّ العرس او شارك ،

ولغير شاعرٍ اقوال في النساء منها :

توقّوا النساء ، فانّ النساء ،
نقصن حظوظاً وعقلاً ودينا ،
وكلّ به ، جاء نصّ الكتاب
واوضح فيه ، دليلاً مبيناً ،
فأمّا الدليل ، لنقص الحظوظ
فارثهنّ نصف إرث البنينا ،
ونصف العقول ، فاجزأوهنّ ،
بنصف الشهادة ، في الشاهدينا ،

وحسبك من نقص أديانهم ،
ما لست تردد فيه يقينا ،
فوات الصلاة ، وترك الصيام ،
في مدّة الخيض ، حيناً فحيناً ،

ومن اقوالهم ايضاً :

رأيتُ الشرَّ في الدنيا كثيراً ،
واكثر ما يكون ، من النساء ،
فلا تأمنُ زمانك غدرَ انثى ،
ولو هبطتُ عليك من السماء ،

وما سقنا هذا الاّ لتبيّن ما كانت عليه حال المرأة في تلك
الازمنة التي ما كان ينظر اليها الاّ نظر دُمية للرجل تقوم على
مسرّته او خدمته وقضاء حاجاته . وما يقال من أنها كانت على
شيء من المقام ، تشارك في الاحكام والاعمال المعاشيّة فأقوال
تحتاج الى اسناد ، وقد قالوا :

إعص النساء فتلك الطاعة الحسنة ،
فلن يفوز فتى ، أعطى النساء رسنه ،
يعقنه ، عن كمال في فضائله ،
ولو سعى طالباً ، للعلم ألف سنه ،

وما ادب العصائب إلاّ دليل واضح بيّن على ما قدّمنا ،
من شأن المرأة ، فما كان مثلها إلاّ مثل ألّهية يعبت بها
العابثُ لذّة ، ولو لم تكن المرأة مستضعفة لما تبرّجت وتزيّنت ،
وأنت من ضروب الغنج والدلال ما يستهوي ويستميل وعلى
عصابتها :

مالي رميت ، فلم تصبك سهامي ،
ورميّتي ، فاصبّتي ، يا رامي ،

أو :

أفلتُ من حور الجنان
وخلقتُ فتنةً منْ يراني ،

وممّا كتبته جارية الناطفي على عصابتها :

الكفرُ والسحرُ ، في عينيّ اذ نظرتُ ،
فاغرب بعينيك ، يا مغرور عن عيني ،
فإنّ لي سيف لحظٍ ، لست اعمده ،
من صنعة الله ، لا من صنعة القين (١) ،

(١) القين : صانع السيوف

وامّا « حدائق » ذات الطرف الناعس فقد كتبت على يدها
بالحناء :

ليس حسن الخضاب ، زين كفتي ،
حسن كفتي ، زين لكل خضاب ،

وحكي ان الجارية « حمدان » كانت تتقلد سيفاً وتخرج الى
القوم وعلى رأسها قلنسوة كتب عليها :

تأمل حسن جارية ،
بحار بوصفها البصر ،
مذكرة مؤنثة ،
تراها انثى او ذكر ،

وكتبت على حمائل سيفها :

لم يكفه سيف بعينه ،
يقتل من شاء بجدته ،
حتى تردى ، لابساً درعه ،
يخطر فيها ، بين صفيه ،
علمت ان السيف من طرفه ،
أقتل من سيف بكفّيه ،

عود على بدء

ومن حديث الغناء ، ما نُقل : جاء تيم بن تيم بجارية من
بغداد ، رائعة فائقة الغناء ، فدعا بجلسائه ، وقدّمت الستارة ،
فغَنَّت :

وبدأ له من بعد ما اندمل الهوى ،
برق تالّق ، موهنًا لمعانه ،
يبدو كحاشية الرداء ، ودونه ،
صعب الذرى متمتع أركانه ،
وبدا لينظر ، كيف لاح ولم يطق ،
نظراً إليه ، وهده ، هيجانه ،

فطرب تيم ومن حضر معه ثم غَنَّت :

سَيْدُ سُلَيْكٍ بِمَا دُونَ دَوْلَةِ مَفْضَلٍ ،
أَوَائِلُهُ ، مَحْمُودَةٌ ، وَأَوَاخِرُهُ ،
ثَنَى اللَّهُ عَطْفِيهِ ، وَاللَّفَّ شَخْصَهُ ،
عَلَى الْبَرِّ ، مُنْذُ شُدَّتْ عَلَيْهِ مَآزِرُهُ ،

ثم غنّت صوتاً آخر :

استودع الله ، في بغداد لي ، قمرآ ،
بالكرخ من فلك الازرار مطلعته ،

فأفرط تميم في الطرب جداً وقال لها : تمّني ما شئت ، فلك
مناك ،

قالت : اتمنّى أيها الامير ، عافيتك وسلامتك ،
— والله ، لا بدّ ان تتمّني

— على الوفاء أتمنّى ان اغني هذه النوبة ببغداد ، فتغيّر وجه
تميم وتكدّر المجلس

وامر تميم ان تُحمَل الى بغداد ، واصحبها جارية سوداء تخدمها ،
ولمّا وردت القادسيّة ، ارتفع صوتها وغنّت :

لمّا رأينا القادسيّة ، حيث مجتمع الرفاق ،
وشمّت من ارض الحجاز نسيم انفاس العراق ،
أيقنت لي ولـمـن أحبّ بجمع شملٍ واتفاق ،
وضحكت من فرح اللقاء كما بكيت من الفراق ،

فصاح الناس من طرف القافلة : أعيدي بالله ، فلم يسمع لها

كلمة ، ولما صارت على قيد اميال من بغداد ، اختفت بين
الركب ، ولم يسمع لها بنجر .

من اغانيهن

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد صاحب « الكامل »

حبّذا ماء العناقيد بريق الغانيات ،
بها ينبتُ لحي ودمي ايّ نبات ،
أيّها الطالِب اشهى من لذيذ الشهوات ،
كلّ بماء المزن تفّاح خدود الفتيات ،

الغناء في الاندلس

وامّا الغناء في الاندلس ، فقد جاء به غلام من الموصل اسمه
زرياب ، لحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمان ، امير الاندلس
فبالغ في تكريمه ، وركب للقائه ، واسنى له الجوائز والاقطاعات
والجرايات ، وأحلّه من دولته وندمائه بمكان فأورث الاندلس
من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف وعنه اخذت

مغنيات الاندلس وجواري القصور ، وقد ساعدت الموشحات
على الغناء ، ومن الحكايات المروية ، ما ينقل عن الفيلسوف ابي
بكر بن باجه ، انه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب
سرقسطه ، فالتقى على بعض قيناته موشحته :

لازمه

جرّ الزيل ، أيمّا جرّ
وصل الشكر ، منك بالشكر

دور

خضّب الرند منك بالذهب ،
من لجين ، قد حفّ بالذهب ،
تحت سلك كجواهر الحبيب ،
مع أحوى واعذب الشنب ،
اودعت كفته ، من السجر ،
جامد الماء وذائب التبر ،

دور

هاك نور الصباح قد لاحا ،

ونسيم الرياض قد فاحا ،
فتأهب وشعث شع الراحا ،
لا تقدر في الظلام مصباحا ،
حين تنهل أدمع القطر ،
فملى الروض ناسم عطري ،

دور

فهوم راحت بأفراح ،
في مساء وعند إصباح ،
والغوادي ، تجود بالراح ،
وهي تسقي الربى بأقداح ،
وقدود الاغصان بالسكر ،
تتشنى في غلائل خضر ،
قد جنت لي احسن الزهر ،
جذوة ، عنبرية النشر ،
عقد الله ، راية النصر ،
لامير العلا أبي بكر ،

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، صاح واطرباه
وشق ثيابه وقال : ما أحسن ما بدأت وختمت وحلف بالايامن
المغلظة ، ان لا يمشي ابن باجه الى داره إلا على الذهب ، فخاف
الفيلسوف سوء العاقبة ، فاحتال ، بان جعل ذهباً في نعله ومشى
عليه .

وما يدلنا على ان صناعة الغناء في الاندلس لم تقل عمّا كانت
عليه في المشرق ، ما ذكره ابو الوليد بن رشد في تلخيصه كتاب
ارسطو في الشعر قال : « والمحاكاة في الاقاويل الشعرية ، تكون
من قبل ثلاثة اشياء ، من قبل النغم ومن قبل الوزن ومن قبل
التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه ،
مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في
اللفظ »

هذا ما وقع لي من ادب المغنيات اثبته في هذه العجالة وهو
ما ظفرت به اثناء مطالعاتي فعسى ان اكون قد قدّمت ناحية
من هذا الادب الطريف ومهدت الطريق لمن يرغب في بحثه بحثاً
علمياً يستوفيه من كل جوانبه ونواحيه ، فان مجال القول فيه
ذو سعة لمن يرغب في التعميش والتنقيب .
ومن أغانيهنّ ما يأتي :

لابن زيدون :

متى أثبتك ما بي ،
يا راحتي وعذابي ؟
متى ينوب لساني ،
في شرحه عن كتابي ،
اللهُ يعلم أني ،
أصبحت فيك لما بي ،
فلا يطيب منامي ،
ولا يسوغُ شرابي ،
يا فتنه المتعزّي ،
وحجّة المتصّابي ،
الشمسُ انت توارت ،
عن ناظري ، بالحجاب ،
ما البدرُ شَفَّ سناه ،
على رقيق السحاب ،
إلاَّ كوجهك لمّا ،
أضاء تحت النقاب ،

ونديّ أنس هزّني ،

هزّ الشراب من الشباب ،

والليل وضاحُ الجبينِ ،

قصيرُ أذبال الثياب ،

فقنصتُ منه حمامةً ،

بيضاءَ تسنحُ منْ غرابٍ ،

والنورُ مبتسمٌ ، وخذّ الوردَ مخطوطُ النقاب ،

يندى بأخلاق الصحاب هناك لا بندي السحاب ،

وكلاهما نثرٌ ، كما نثروا القوافي بالخطاب ،

فكانَ كأس سلافةٍ ضحكت ، إليهم عن حباب ،

وقد رأى ابن خلدون ، ان صناعة الغناء آخر ما يحصل في

العمران من الصنائع ، لانها كمالية للفراغ واللهو والطرب ، وهي

كذلك آخر ما ينقطع العمران عند اختلاله وتراجعته بجوادر

الايام .

هذا ما وقع لي من اخبار بعض المغنيات اللواتي تلاعن في

قلوب الخلفاء والامراء ، وهنالك جوارٍ عاشقات كنعمى ونفوسة

وتحفة الزاهدة وغيرهنّ لم اتعرض لذكرهن ، لا ، لانهنّ لم يتصلن

بقصور الخلفاء ، ولكن لما في اخبارهنّ من مطارحات غرامية
لا يحسن بهذا الكتاب عرضه . ومن خبر نعى انها عشقت فتى
سمع غناءها في قولها :

عرضت على نفسي العزاءَ فقيل لي
من الآن فابأسُ لا اعزك من صبرِ
اذا بات من تهوى واصبح نائياً
فلا شيء أجدى من حلولك في القبرِ
فما انتهت من غنائها حتى القى بنفسه من النافذة فمات ،
والقت هي نفسها في حفرة ماء عميقة وقالت :

من مات عشقاً فليمت هكذا
لا خير في عشقٍ بلا موت

الحقوق محفوظة للمؤلف

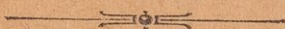
مراجع البحث

العقد	لابن عبد ربّه
الاغاني	للاصفهاني
المحاسن والاضداد القيان	للجاحظ
الكامل	لابي العباس المبرد
مقدمة ابن خلدون	
المستطرف في كل خير مستطرف	لابشيمي
التمذّن الاسلامي	لزيدان
صناعة الطرب	لنوفل افندي نوفل
وغيرها	الطرابلسي

تصويبات

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٠	١٤	شئناً	شيء
٢٧	٧	حباية	حباية
٦٥	٦	تهوه	تهواه
»	٧	الدنانير	دنانير
٦٩	١٤	الافراط	الاقراط
٧٧	١٨	اليها	عليها

فهرس



المحتويات	صفحة
ادب المغنيات	٥
العصر الجاهلي	٩
العصر الاموي	١٢
الحكم في الغناء	١٧
رأيه في الغناء	١٩
تقسيم السماع	٢٠
يزيد وحبابه	٢٧
حبابه وسلامه	٣١
موت حبابه	٣٣
المغنية ملبحه	٣٥
عبدالله الملقب بالقس وسلامه	٣٩
ابن ابي عتيق	٤٠
الزلفاء	٤٤
العصر العباسي	٤٨

من اغانيهن	٥٢
القيان في القصور	٥٤
باب الذهب	٦٢
من اغانيهن	٦٣
خالد والجارية دنانير	٦٥
الالبسة والحلي والآلات	٦٨
الحلي والزينة	٦٩
التطيّب	٧١
آلات الطرب	٧٢
العصائب وما كتب عليها	٧٣
عود على بدء	٨٢
من اغانيهن	٨٤
الغناء في الاندلس	٨٤

أحدث مطبوعات دار الثقافة

غ. ل.	
١٥٠	الحب العذري (طبعة ثانية منقحة) موسى سليمان
١٠٠	سالومي (اوسكار ويلد) ترجمة سمير شيخاني
١٠٠	انانية الالهة (قصة من الحياة) عادل يزبك
٢٠٠	من الجراب (ادب ونقد) مارون عبود
١٠٠	قاهر الموت (وقصص اخرى) البير مفرج
٧٥	لم يذهب مع الريح (قصة عربية) رشاد دارغوث

تحت الطبع

قدماء وجدد لمارون عبود

أحدث كتاب في النقد

تطلب هذه الكتب مع كافة الكتب العربية من

دار الثقافة ببيروت

تلفون ٣٥-٦٧ ص.ب. ٥٤٣

شهرزاد في ليالي ألف ليلة وليلة

الموسوعة العربية الخالدة

يصدرها مكتب المراسلات الدولية

ودار الثقافة ببيروت

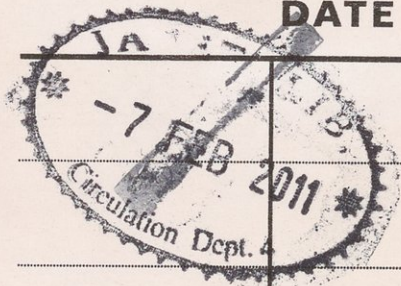
مزينة بالصور والرسوم الفنية

١٠٠ صفحة بـ ٥٠ قرشاً

اطلبها من المكتبات والباعة ومن الناشر

دار الثقافة ببيروت

السور — بناية الغراوي — ص.ب. ٥٤٣



SalimuA.c.1

سابا، عيسم، ميخائيل

المغنيات في الادب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034851

American University of Beirut



103
SalimuA
General Library

892.709
S113muA